رواية

أطلال النهار

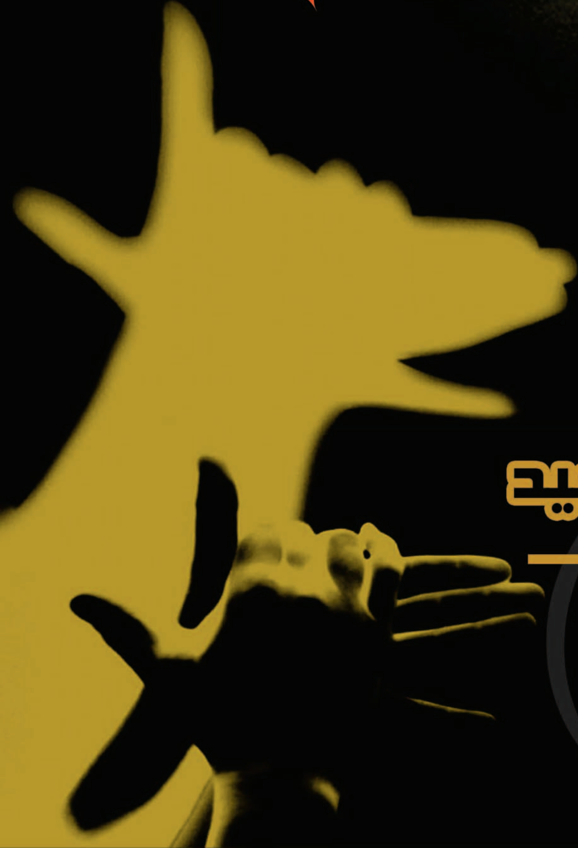

يوسف القعيد

أطلال النهار

يوسف القعيد

الفهرس

" يا خوفي من يوم النصر
تِرجع سينا وتضيع مصر "

من أغنيات
المحارب القديم

صباح أبيض كالحليب

ـ ١ ـ

كنتُ في البيت عندما أتاني صوت المدير. عرفته من بصمة صوته التي لا تُخطئها الأذن، كان بجواره المخـرج، فهمت ذلك من تدخله في بعض التفاصيل كعادة المدير، دخل في الموضوع مباشرة.

ـ ما رأيك في تحقيق ميداني عن النصر الأكيد؟

كان يشرح بسرعة. وكانت ملاحقة كلماته تتعبنـي، قال: إن المطلوب تخطيط للمشروع الذي تقدمت بـه " يـوم النصر وما جرى فيه ".

عن أي المشروعات يتحدث المدير بهـذه الطريقـة الاقتحامية؟

ما أكثر المشروعات التي نقدمها، وتنزلق مع الأيـام هاربة مبتعدة. ألا يعرف المدير أن النسيان أهـم مـا فينـا؟ الرءوس صناديق فارغة وكل ما في العقل يتآكل.

حاولت أن أُوقفه:

ـ أنت لسة فاكر؟

في نبرة استعراضية، قال: إن ذاكرته من حديد وإنه يدون أوراقًا بما يقوله، تذكرت، دعكت جبهتي، قلت:

ـ قصدك مشروع حروب مصر الأخرى؟

رد فورا:

ـ برافو، أول ذاكرة نسائية قوية.

كدت أحييه، قدرته على حفظ الأوراق في التوابيت، لابد بأن تثير الإعجاب، ألسنا أبناء الفراعنة؟ كان أهـم مـا قدموه للبشرية مجرد قبور، مشروعات للآخرة. قلت لـه: إن كل شيء قد تغير، الزمن الذي قدمت فيه المشروع، أصـبح الآن ماضيا تاما. عندما كتبته كان عن يوم النصر الأكيـد، بعد ذلك بعامين، كان قد ارتدى اسما آخـر: أصـبح يـوم الاغتيال؟

سألته ماذا يريد: النصر أم الاغتيال؟

قال لي: إنني لم يؤخرني ويجعلني فـي آخـر كـل الطوابير دائما، سوى هذه الفلسفة التي توجع الرأس، وتتعب القلب. أكد لي أن المطلوب هو تحقيق ميداني للمشروع القديم عن يوم النصر بعد عشرين عاما، نحن الآن بعد سبع عشرة

سنة، غدا تحل الذكرى، إما أن نعيد خلق اليوم كما كان منـذ سبعة عشر عاما مضت، أو اليوم الذي سيأتي بعـد ثـلاث سنوات. المهم أن يكون اليوم هو البطل، وفي جميع الأحوال، فإن ثلاثة أعوام تفصلنا عن اليوم، المفروض عرض فيلمـك فيه. وهي فترة كافية لإنجازه. إن الموضوع سيصبح أكثـر من مثير وسينفذ تحت عنوان كبير هو: من يذكر تلك الأيام؟

ـ موافقة؟!

قبل أن تخرق طبلة أذني خبطة رزع سماعة التليفون في مكتبه أسرعت بالاعتراض:

ـ مشْ موافقة.

ضحك كعادته:

ـ الاعتراض على الموضوع مـن حقـك. ولكـن الاقتراب من النصر المؤكد بالجدل الذي لا أول له ولا آخر، خيانة للوطن.

لم نكن قد اتفقنا على فيلم ولا يحزنون، كل ما حدث أنني كنت قدمت ملخصا شديد التركيز بمحاولة رسم صورة تذكارية للناس في هذا اليوم البعيد. والنظر إلـيهم بـالوعي الذي تكون بعد عشرين عاما مرت على الحدث. وأنا الآن لا

أذكر متى تم هذا؟ كل ما في الذهن ضباب بعيد لا يبرز منه أي شيء محدد. عصرت ذهني. بدأت تطفو علـى السـطح بعض التفاصيل، طلبته من جديد قلت: إنني كنت أنوي تقديم حياة الناس. كل الناس.

ـ ماذا تقصدين؟!

ـ من القاع للقمة وما بينهما.

ـ أوكي.

ـ من باب الحديد حتى باب المليار.

ـ جو أهيد.

كنتُ في المنطقة الرمادية. كل ما حولي يضغط على الحواس، لدرجة تفيض على الحاجة، ربما وصل الأمر إلـى الحصار. ومع هذا عند البحث عما نريده لا نجده، وإن عثرنا عليه لا نستطيع الوصول إلى نقطة النهاية. كل مـا حـولي مشاوير، مشيت الخطوات الأولى منها، أما الوصـول إلـى النهاية فلا يحدث أبدا. ولا أعرف السبب.

اتفقنا على أن يبدأ اليوم من منتصف الليلة السـابقة عليه. حتى لحظة انتصاف الليلة التالية. لن أستعين في البداية وأثناء التحضير بأحد من كاست الفيلم حتى أضـمن التـدفق

والتلقائية، وأغلق الطريق على التصنع والافتعال خاصـة أن الموضوع له جانب وطني.

طلب مني المدير أن أُخرج من ذهني كل ما يقولـه أقطاب اليسار الأحمر، وشيوخ شـباب الـذقون والجلاليـب البيضاء، فعلى الرغم من كل التناقضات بينهما، إلا أن ثمـة اتفاقًا ضمنيا على التقليل من جدوى النصر الذي تحقق وتقديم الاغتيال على الإنجاز.

الناس هدفي إذن. ما جرى في ذلك اليوم غايتي، عل أن أرسم خطة دقيقة ومحكمة من الآن حتى لا أسير بـدون هدف. لن أبحث عن كل المصريين. المهم أن أعكس جوهر حال الوطن في هذه اللحظة الفريدة من عمره.

جهزتُ أشيائي ووضعتها في حقيبة عمل غير شنطة يدي؛ أوراق رسم، أقلام من أنواع مختلفة. جهـاز تسـجيل دقيقٍ، كاميرا صغيرة لا يكتشف من يراها إنها كاميرا.

وبدأت أعيش جو المغامرة المثيـرة. خرجـت مـن الحالة التي وضعتْني فيها المكالمة التليفونية التي لـم تكـن تخطر لي على بال. عدت إلى يومي أتأملـه حتـى لحظـة المكالمة. كان له تصور آخر. وبرنامج وضعته من الأمس.

كل هذا عشته بوعي جديد. ورأيته بـأعين أخـرى، سـألت نفسي: هل أستمر في يومي السابق أم أتوقف، وأضع نقطـة فاصلة بين ما قبل المكالمة وما بعدها؟!

كانت لدي بعض المشاوير السريعة، ثم موعد لدعوة على الغداء مع صديق، تربعت صورته على شاشـة ذهنـي فجأة، وبعدها جاء العبوس، صديق جديد قديم. جديـد لأنـه مازال يمثل بالنسبة لي علامة استفهام كبيرة، وقـديم لأننـي أعرفه منذ فترة توشك أن تقترب من العام، وفي زماننا فهذه طويلة بكل المقاييس، ثم إن عمله ليس من النوع الذي يروق لي، المشكلة أنني ما زلـت أقـول إنـه صـديق، مـع أن مشروعاتنا تسبق كلماتنا في بعض الأحيان.

قلقتُ، تعكر هدوء الصباح، المفـروض أن تغييـر موعدي معه سيؤدي إلى إلغاء عدد من الارتباطات الأخرى التي تدور كلها حوله. قريبة منه، أو في أحياء مجاورة لـه. ذلك أن تعقيدات حياتنا في السنوات الأخيرة. جعلت كلاً منـا يقوم بعمل خطة خمسية قبل أن يجازف وينزل من بيته.

وعلى الرغم من أنني كنت أعتبر دستور صـداقتنا، وما قد تتطور إليه من احتمالات في المستقبل، ينص على أن

أمامها خطًا أحمر لا يمكن الاقتراب منه. وهو ألا يتدخل في عملي، وإنني لا علاقة لي بما يقوم به، حتى أصون نفسـي وأبعدها عن سيل الشائعات التي يمكن أن يجرها علي.

البعض يقول أمامي وفي وجهي إن عمله لعنة وأنـا مصرة على هذا المبدأ: ما للصداقة للصداقة. أما العمل فهـو حكاية أخرى، لكن وآه من لكن هذه، ماذا يمنع هذه المرة فقط أن أذهب إلى موعده حاملةً فوق أكتـافي المشـروع الـذي داهمني بعد الاتصال التليفوني؟ مرة وحيدة لابـد أن تكـون الأخيرة. هل يوجد في بلادنا من يجرؤ على القول إنه يفعـل أمرا ما لآخر مرة؟ إن آخر مرة هذه تصبح سراب عمـره. كل مرة تصبح ما قبل الأخيرة، وهكذا..

سأذهب إليه، دون كلمات كبيرة قاطعة عن حكايـات المرة الأخيرة وغيرها. لسبب بسيط، إنه الوحيد الذي يمكنـه أن يقدم لي دفتر أحوال الوطن في مثل هذا اليوم البعيد. وفي اليوم نفسه بعد سبعة عشر عاما لن أثير أمامه حكاية النصر أو الاغتيال حتى لا يستريب في الأمر.

الوقت هو الضحى، حيث الفراغ العذْب والتسكّع بين اللحظات، بدون رغبة في فعل أي شيء. لولا هذا التليفـون

المقلق لقضيت الوقت كله في تضييع الوقت، لحـدقت فـي السقف، وشددت رموش عيني. وقمت بإعادة طـلاء أظـافر يدي وقدمي.

أعجبتها الكلمات التي تدور فـي ذهنهـا، فأعـادت نُطْقها: عينة من دفتر أحوال البلاد وما فيها من العباد ومـا يجري لهم وبينهم. لن تجدها سوى عنده.

عجيب ما يحدث لها. كانت تناوشـها فكـرة طـي صفحته بعد أن تكتب في ذيلها كلمة النهاية. لأنه ما من شيء يجمعهما أبدا. إن كانت هي في سيولة الماء. فهو النار فـي ضراوتها. وإن بدتْ قطة فهو الفأر. وهل حدث أن اجتمعت المياه والنيران أو القطة والفأر؟!

سمعت من يقول في طفولتهـا، إن كانـت ذراعـك اليمنى ضابطة شرطة اقطعيها إن فعلـت هـذا تسـتريحي وتريحي. منذ أن تعرفتْ عليه هي تدرك بحس الأنثى أن كل وجوده مركز بين فخديه. بينهما مناورة مستمرة. ما إن وقع بينهما التعارف، وهما يسيران في طريقين متـوازيين، هـي تريد البيت والستر والخلْفة وهو يبحث عن مغامرة. تعـرف إلى أين يمتد سقف أحلامها. أما هو، فكل تصرف يقدم عليه،

يؤكد لها حماقة الذين يتوهمون أنهم انتصروا في معركة لـم يخوضوها أبدا. ولا حتى في خيالاتهم المهووسة.

ـ ٢ ـ

كان الضابط الشاب يستعد لتسليم نوبتجيـة السـهر الليلية، بعد أن استيقظ من النوم، وذهـب إلـى دورة ميـاه الضباط، التي ينظفها كل ساعة، المحجوزون في القسم كنوع من العقوبة المفروضة عليهم من ناحية، ولنظافـة كـل مـا يستخدمه السادة الضباط من ناحية أخرى.

اغتسل حضرة اليوزباشي بدر بحاُق، وغير ملابـس النوم بالبدلة الميري. نظر في المرآة. رأى انتفـاخ جفـون عينيه، يبدو كعنوان على نوم طويل. تذكّر أن الليلة الماضية مرت هادئة. كان الوارد إلى القسم فيه من الأمـور العاديـة التي تحدث كل ليلة.

خناقات، مشاجرات، مشـاحنات، حـالات اشـتباه، بلاغات سيعرض الوارد على النيابة، خلال النهار، حيث يتم التصرف في كل حالة على حِدة.

قال الضابط لنفسه؛ إنه سيمسك الخشب حتى لا يحسد هذه النوبتجية. باق من الزمان ساعتان. يشرب فيهما قهوتـه المضبوطة، ويدخن معها سيجارة الصباح، على الريق، فـي انتظار أن تمر عليه صديقته " صبرة عابدين ".

يوهم نفسه كل صباح أنها حبيبة القلب، سـيتناولان الغداء في مطعم بعيد منزوٍ، مواصلاً محاولـة إقناعهـا أن تذهب معه إلى شقته، وهي تواصل رفضها، ما لـم تـدخل الشقة وبيدها وثيقة زواج. يضيف هو أن الإشهار والعلنيـة أهم من كل الوثائق. وما زال يعاني من بعض المشاكل التي تحول دون هذه العلنية.

تقول هي: إنه إن كان من حقه أن يطلب منها الذهاب معه إلى شقته فلا يمكن لقوة على الأرض أن تحرمهـا مـن حق الرفض. ويدخلان في مناقشات لا أول لهـا ولا آخـر، تعود بها الأمور أحيانًا إلى بداية البدايات الأولى، ويلوح هو بنهاية النهايات، ولكنه لا يتزحزح عن طلبه بعد أن يضـيف إليه زخارف زائفة عن الثقة المطلقة واعتبار المناقشات خطأ أساسي، وتتحصن هي في مكانها قائلة: إن ما تطلبه هو الحد الأدنى الذي لا يمكنها التنازل عنه تحت أي بند.

ما زالـت المبـاراة مسـتمرة بيـنهم أن يتحـداها ويقول:إنها مثل كل بنات جنْسها، يتمنعن والرغبة تأكُلُهن في كل لحظة تمنع وهي تقبل التحدي في كل مرة قائلةً:

ـ اللي يغلب نسلُخ وشّه.

يوافق فورا ويضيف:

ـ بسكينة تلمه عشان يبقى الألم " مضمون ". يتحمل " بدر كل رزالات " صبرة ". لأنه لم يحقق ما يريده وهـي تواصل الطريق معه لأن الزواج لم يتم بعد.

بعد شَفْطة القهوة الأولى، التي يتذوق طعم وجـودة البن من خلالها ونَفس السيجارة الأول، أتاه البلاغـان مـرة واحدة، يبدو أنه هو الذي حسد نفسه على الليلة الهادئة. فكّر أن يرسل الصول الذي يعاونه في النوبتجية، ولكن الأمر بدا له أكبر من إمكانات الصول.

أحد البلاغين عن حادث وقع فـي الطريـق العـام، ويمكن أن يتجمع الناس ويتحول الأمر إلى تجمهر ويتطـور إلى ما لا تحمد عقباه.

البلاغ الثاني مثير وحساس وربما يحدث لأول مرة، ومن شكله أنه جرى لأناس أكابر. ومثـل هـؤلاء الخلـق

واصلون ويعرفون سكان علالي الحكومة وقـد يسـبب لـه تكاسله في موضوع يخصهم بعض المتاعب، وربما وصـل الأمر إلى التحقيق والجزاء والخصم والنقل إلى كفر أو عزبة بعيدة.

صديقته التي يحاول أن يضحك عليها. ويوهمها أنها حبيبته، ويحلم أن تصبح عشيقته، حتى يخرجها من نافوخـه ويخْلص من حكايتها وصلت لحظة خروجه من مكتبه.

ابتلع دهشته قبل أن تعلو وجهه، جاءت قبل موعدها بكثير. هكذا هي إما أن تحضر متأخرةً ساعات. وهـذا مـا تعوده منها منذ بداية حكايتهما. وها هي تأتي قبـل الموعـد أيضا بساعات. أما الحضور في اللحظة نفسها التـي اتفقـا عليها فهذا ما لم تفعله من قبل.

لابد أن ثمة سببا قويا وقاهرا دفعها إلـى الحضـور مبكرة. أقلّ القليل أنها جاءت لتعتذر عن الغداء. الـذي أراد أن يكون حاسما. تذكر أن بينهما اختراعا اسـمه التليفـون.. لماذا لم تستخدمه؟ مجيئها هكذا وراءه ما وراءه ولكن هـل يتساءل حتى يبدو حضورها أمرا مزعجا. إنه لا يملك فـي كل الأحوال سوى الترحيب بحضورها.

عرض عليها أن تذهب معه، يحقق هو، وترى هـي ما يجري من الحوادث الغريبة، والحكايات العجيبة التي لـم تجر من قبل في البر كله.

كادت تطير من الفرح، فهو يعرض عليها، لأول مرة الذهاب معه في رحلة عمل، أوشك الفرح أن يتبخر عنـدما فكرت في أنه من الواجب أن تخبره بما تقول بـه، حتـى لا تبدو أمام نفسها كمن غدرت بمن وثق بها وعرى أمامها حتى قضايا عمله.

إن قالت له لا تضمن ردود أفعاله. ربما اسـتثارت حاسة شمه، وحركت قرون استشعاره. مـن المؤكـد أنهـا ستخبره، ولكن ليس الآن. لكل أمر توقيته السـليم، وهكـذا استراحت لهذا الحل الوسط.

تحرك الضابط من القسم، وحوله الجنود والمخبرون، ومن وسطه يتدلّى مسدس يبدو سواده واضـحا لأن " بدلتـه الميري " كانت ناصعة البياض، فلم يكن تغيير اللّبس الصيفي بالزي الشتوي قد تم بعد.

اقترب من السيارة وهو يضحك ضـحكة جسـورة، أجلسها في السيارة، وهو يشعر أنه دافئ المزاج، نظر إليها،

قال لنفسه: إن كل ماء هذا الكون لا يمكن أن يغسـل هـذه الإنسانة من شكوكها أبدا، حاول أن يصطاد البريق المـاكر في عينيها، ولكن البريق بدا مثل الظلال المراوغـة لحظـة الغسق.

فكّر بأي الحادثين يبدأ، وفي لمح البصـر قـرر أن تكون البداية ببلاغ أولاد الشوارع. حتى يكون الختام مسـكًا بما جرى للأكابر في الجانب الغني والفاخر والفـاجر مـن الحي.

في بداية الرحلة، كانت " صبرة عابدين " تتحدث مع " بدر " تتذوق طعم الكلمات قبل أن تنطق بها. كلمة وأخرى وانطفأت الرغبة في الحديث لديها، والقدرة على الاسـتماع عنده، ذلك أنه الآن حضرة الضابط الذي يتحرك بين جنوده. تلك لحظة عرسه الحقيقية، يشخط وينظر، يأمر وينهي، يمنع ويمنح، لا يوجد ضابط يسمع. إن أنْصت للآخرين فإن هـذا يقلل من كونه ضابطًا حوله الجنود من كل جانب.

سهمت، سرحتْ، حلقت مع أفكارها بعيدا عنه لدرجة أنها لم تلاحظ مظاهر الأبهة والعظمة التي يتعامل بها خلـق

الله مع سيارة القسم التي يستقلونها، وهي تمر في الشـوارع والحواري، لم يكن ينقص السيارة المهيبة سوى الموكب إياه.

كُنت أفكر، أبحث، أسأل نفسي، من أين تبدأ الكلمات التي تتشكل في روح الوطن المضطربة المشوشـة؟ كيـف أقبض على الفكرة المراوغة؟

هل أستطيع الوقوف أمام ثقب في البـاب أرى منـه ضمير البلاد وهو يئن ويتلوى ويتوجع من العذاب؟ ما هـو السبيل للإمساك بالوميض العابر لكي أحوله إلى نور بـاهر ومتصل؟ إن الاستمرار هو الأهم، بل ربما كان التحدي.

من أين ابدأ رحلتي؟ هذا هو السؤال الكبيـر، وهـل يمكن الابتعاد النهائي عن هذا الضابط. لأُحدد نفسي أكثـر. كيف تمتد أصابعي في جراح روح البر؟ كيف أشـم بـأنفي مهانة الوطن وذله اليومي على أعتاب أصـحاب الكـروش المتهدلة؟

ماذا أفعل بنفسي؟ هل أحاول أن أشتري الاطمئنـان لكي أدهن به الجدار الخارجي لضميري المعذب؟ هل أطُارد الحزن المتسلل بين أوتار صوتي الذي كان حنونًا في الزمان الذي مضى؟ أنظر في الفرص الضائعة في عمري القصير.

في البرهة والساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة، قبل أن أسأل نفسي: هل سلكتْ الطريق الخطأ؟ وأيـن هـي سـكّة السلامة؟

أبحث عن الطمأنينة المستحيلة، ولكني ليلة الأمـس وفي الكتاب الذي أقرأ فيه، وضعت خطًا تحت عبارة تقول:

" عند مفترق الطرق تُصبح الطمأنينـة وهمـا مـن الأوهام ".

المتْعوسة وخَايِب الرجا

كان مشوارها شمسا وغباراً ورملاً

من الريف هربت، وإلى المدينـة الكبيـرة جـاءت، حاولت أن تتماسك وأن تُمسك حبال الهواء بيديها، كتبت على أجنحة العصافير رسائل لم تصل إلى أهلها، أسـلمتها سـكة لطريق، تحاول أن تتذكر آخر مرة شاهدت فيها ترعة يجري فيها ماء صافٍ، وأم الشعور تحمم شعرها فيه.

رأت من يشير إليها، وسـمعته يقـول: الصفْصـافة تستحم. كانت المرة الأولى التي تسمع فيها هذه الكلمة ولـم تكن تعرف سوى أنها أم الشعور.

أول البنْدر الكبير، أصبحتْ فـي حضـن العشـش وبيوت الصفيح، كان نمل الخوف يسبح في عروقها، وعلـى مدد الشوف ما زالت العمارات العالية التي تلامس سماء الله العالية بعيدة. كان الدخان يمـلأ الهـواء. والوصـول إلـى العمارات يحتاج ليوم آخر من المشي. والنور يكاد يقفز إلى داخل عينيها.

ولكنها كانت قد تعبت من المشي. تورمت قـدماها، وقرصتها بطنها، تعاركت مصارينها الخالية حتى من الهواء والماء. والجوع كافر. زاغت عيناهـا وزغللـت المرئيـات فيهما، من كثرة ما شاهدت، هاجمت الأشياء عينيها، عروق المدينة وشرايينها وأوردتها وأناملها مليئة بالناس والعربـات والصخب، نشف ريقها، وهد المشوار الطويل حيلها.

كانت دهشتها بلا نهاية إزاء كل ما تشاهده، البيـوت العالية التي توشك أن تـنطح السـحاب، الزحـام، كرنفـال الألوان، الملابس العجيبة.

حاولت أن تعبر الشارع، سمعت أصـوات احتكـاك العجلات بالأرض. وتناثرت الشتائم مع تفتفات من يتكلمون. قال أحد ركّاب السيارات وهو يعدِل نظارته في مكانها:

ـ لو أن الحكومة وطنية. تحب البلاد لأعادت كـلّ جربوع صايع إلى قريته. ولمنعت كلّ فـلاح مـن دخـول المدينة. ولألقت القبض على كل طفلة تسير بـدون أهلهـا. ويجب أن يكون هناك رسم تسلل ودمغة عبور ومـال يـدفع عند الدخول وعند الانتقال من حي إلى آخر.

رفع زجاج باب سيارته، وهو يقول:

ـ في بلدان العالم المتحضرة يفعلون هكذا. لابد من حماية نظافة أهل البنادر من قاذورات أولاد الفلاحين. الذين يصبحون بعد دخول المدن الجميلة أولاد شوارع.

وهو يتحرك سمعت، يجب، لابد، حتما، لزمن، لـم تفهم كلمة واحدة مما قاله، وإن كانت قد فهمت أنـه يهـددها لأنها تجرأت وعبرت الشارع من ناحية لأخرى.

أصبحت كمشانة مثل فأر أمامه مصيدة، بها قطعـة لحم، ووراءه قطة، كانت تتحسر على ما فات، وتخشى مـا هو قادم.

عندما جلست لأول مرة منذ أن بدأت رحلتها، بـدت لها العمارات العالية، مثل التلال التي عنـدما تقتـرب مـن السماء البعيدة تبدو مائلة وتتلامس مع الضـباب النهـاري؛ الذي هو جزء من الغبـار، وعـوادم السـيارات ودخـان المصانع.

نشف ريقها. هد المشوار حيلها. جلست بجوار عربة قديمة. لم يبق منها سوى هيكلها الخـارجي فقـط. خلعـت شبشبها، وضعته على الأرض وكومت فوقه اللفة التي كانت تحملها معها، اللفة والشبشب. سندت رأسها عليهما خوفًا من

ولاد البنادر الذين يسرقون الكحل من العين، كما كانت تقول أمها في القرية البعيدة، كلما شاهدت أفنديا غريبا عنهم.

سندت رأسها حتى تستريح، كان أبوها دائما: إنـه لا الجائع ولا الخائف يمكنه أن ينام حتى لو وقع من طوله، ولا يستطيع أن يصلُب حِيله، ولكنه نسى أن للنوم سلطانًا.

غفلت، نامت. أخذت تعسيلة دون أن تدري، وخلاف تخاطيف النوم المتقطعة، رأت نفسها أولاً في شـقة، تخـدم أهلها، طراوة وأرضية بلاط لميع وجدران ترى نفسها فيها. ونومة في مطبخ لم تر مثل جماله من قبل.

راح منام وجاء " جنينـة " واسـعة، ورد وزراعـة وماء، وسيدها وسيدتها يتفسحان وهي تلعب بالكرة مع سيدها الصغير تكركر معه بالضحكات، وتسابق الهواء وترمح فـي الريح وبعد اللعب جلسوا للأكل.

صحت من نومها على يد تهزها، كانت اليد خشـنة، وعندما بربشت بعينيها لم ترى سوى الشحم المختلط بالشعر المتناثر في الذراع وخاتم كبير من الفضة، وإن كـان لونـه الأصلي قد تاه:

ـ يا فضحتي.

هبتْ فزعة، كان أول طلب لها " بقْ " مـاء، حتـى تغسل الغبار المستكن في حلْقها. وكان الصبي مستعدا للطاعة والامتثال، وإن كانت لم تطلب منه أشياء كثيرة، ولكنه أجـل إحضار الماء لها، بعد أن يعرف ما هي الحكاية بالضبط؟

كانت أمها تقول دائما، إن نوم البنت أمام الغربـاء، أكبر عيب ممكن أن تفعله، والغريـب كـان صـبيا عينـاه واسعتان، ولكن وجهه صلْب كأنه منحـوت مـن الحجـر، طمأنها، طبطب عليها. زحف وسط البقايا والفضلات، حتـى أصبح في أقرب مكان لها، لمت نفسها، وشدت هدومها، حتى أصبحت بعيدة عنه.

شعرت بالدوخان من الجوع والخوف. لفـت الـدنيا ودارت أمام عينيها، طمأنها؛ أحس بدفئها القريب في رئتيه. كان حضورها ساخنًا في قلبه، بدت له الحياة تتسارع علـى شكل أمل مفاجئ لم يكن يتوقعه.

وبدلاً من السؤال والجواب قام، عاد بعد قليل ومعـه بقايا غدائه، قدمه لها في صمت، قال إنها تريد " بق " مـاء، فهي عطشانة. أحضر " جركن " زيت به ماء، نظـرت لـه باستغراب فشرب قبلها منه.

بسملت قبل أن تمد يدها للأكل، وقبلت وجـه يـدها اليمنى وظهرها وهي تقول:

ـ الحمد لله.

قال لها بحنان بدا غريبا وسط المكان القاسي:

ـ تستاهلي الحمد.

بعد الأكل نظرت له. شعره منكوش، عرقُه مرقـه، والأفرول الذي يلبسه مبقع بالزيت والشّحم والتـراب، كفّـاه مفلطحتان وكبيرتان ولا تتناسبان مع ذراعيه الـرفيعتين، ولا جسده النحيف. وعندما نظرت إلى قدميه خيل إليها أنهمـا ـ أي القدمين ـ جزء من الأرض.

كانت تخاف من ضي النهار، وعندما اقترب مِرواحه لم تعرف ماذا ستفعل مع ضلْمة الليل الذي لم يأت بعد؟ روح النهار بسرعة. استعدت الشمس لكي تستريح من عناء وتعب اليوم. وكانت عيناها مجهدتين من كثرة الـبص والتحـديق، وكان وجهها مغطى بفضول مرهق.

خلعتْ ضوء النهار، ولكـن الصـخب والأصـوات ازدادا في الليل. اشتعلت أضواء المساء لمبة وراء أخـرى، وحولت ظلام الليل البعيد إلى نهار يلعلط أكثر مـن النهـار

نفسه. ارتدت ثوبا يضوي ويبرق بألوان مختلفة، فكّـرت أن تمشي، ولكن النهار له عينان. لتبق هنا حتى الصباح الـذي تعرفه، خير من المشي في الليل الذي لا تعـرف عنـه أي شيء الصباح رباح. أحست أن هذا الصبي، ربما كان طيبا، وقد يدلّها على باقي الطريق في الغد.

اقترب الصبي منها وهو يسألها:

- اسمك إيه يا حلوة؟

ارتعشت بالرغبة في البكاء قبل أن ترد عليه. وعندما بحثت عن الرد في عقل بالها، تاه منها اسمها.

أجلت الرد:

- بعدين.

كانت خائفة، وإن كانت لا تعرف مم؟ قال لها إنه لا يوجد معه ما يتعشيان به، وإن كان يمكنه أن يوضـب لهـا نومة مريحة، تحت أي عربية نقل، قال لها إن كل إنسان لـه غرفة نوم واحدة. أما هو فتحت كل عربية نقل غرفة نوم. له غرف بعدد عربيات النقل الواقفة.

قالت لنفسها، إنه مثُلها مقطوع من شجرة. رد سكّك. فرحت، ولكنها عندما فكّرت في الغد حزنت، لأنه لن يستطيع

عمل أي شيء لها. تصورت أنه سيحملها على كفوف الراحة حتى باب البيت الذي ستعمل وتعيش فيه. فإذا هو نفسه يبحث عمن يحملُه.

بحث في الناحية، حتى وجد سيارة نقل تجر مقطورة وراءها، مركونةً فوق رصيف عريض وطويـل. السـيارة متحجرة من خلف العجل وأمامه، دار حولها أكثر من مـرة. تأكد أن السواق والتباع والشيال، وتباع المقطورة لا وجـود لهم. إذن ستبيتُ العربة بحمولتها هنا ولن تتحرك قبل الغـد. ربما يسكن من يعملون عليها في المساكن الشعبية القريبة.

عليه أن يشيل الحجر الموجود أمام عجلة المقطورة. نظر إلى العجل الضخم. أول مرة يرى أربع عجلات في كل ناحية، من كثرة مبيته تحت عربات النقل، فهو متأكد أنهمـا عجلتان في كل ناحية. وهو يفضل عربات النقـل لأن ثمـة براحا بين العربة والأرض. أما الملاكي والتكاسي والـنص نقل، فالمسافة بينها وبين الأرض لا تكفي حتى لأخذ النفس.

فكر أن يحكي للأسطى ما رآه في الغد، ويسأله متى جاء هذا النوع من المقطورات إلى بر مصر لأول مرة؟ وأن يسأله: ماذا لو نامت عجلة في المنتصف؟ كيف يفكها السائق

من أجل لحم الخُرم الذي فيها؟ هل يفك كل العجل؟ أم كيـف يتصرف؟!

نظر إلى العجلات الأربع جهة اليمـين، والعجـلات الأربع جهة اليسار قال في نفسه إن العجلات الثماني يمكنها أن تفرم طفلة مرة واحدة. وقال:إن سـائق هـذه الشـاحنة الضخمة لابد أن تكون عيناه وسط رأسه، وإلا دهس في كل خطوة عباد الله الغلابة المساكين، الذين يقطعـون الشـوارع الطويلة والعريضة، كعابي.

لم يحك لها عما دار في عقل باله. نظّـف المكـان بيديه، وأبعد الزلط والطوب، ولم ينتبـه رغـم أنـه صـبي ميكانيكي، وهو يتحرك تحت العربة، من الأمام إلى الخلـف، أن موتور العربة ما زال ساخنًا بعد.

معها مخدتها، وعليه إحضار مخدة له، ذهـب إلـى الورشة التي يعمل فيها فأحضر مفتاحا كبيرا قال لهـا وهـو يضحك إن المفتاح يستخدمه كمخدة. وإن كانت مخدة حدادي.

فزعت منه، عندما فهمت أنه يريد أن ينام بجوراهـا أخذت لفّتها وغضبتَ:

ـ كان لازم أعف غرضك من الأول.

مدت إصبعها في فمها حتـى تَطْـرش مـا أكلـت وشربت. طبطب عليها كانا معا، هو وهي، يحتميـان مـن عيون الليل بالخوف:

ـ ما تزعليش يا بت الناس.

قالت: إنها لن تستريح، إلا أن نامت في ناحية، وهو في الناحية الأخرى، فوافق. رتب لهـا نومـة أمـام أربـع عجلات، وله نومة أمام الأربع التي قبالتها، مـع أن العجلـة الواحدة تكفي لأن ينام أمام جزء منها، قال لنفسه: براح.

كان يهيم على أطراف أحلامه، ورغباته التائهة بين المنام واليقظة. كان يرغب في سؤال الفتاة، سؤالات كثيـرة. ولكنه أجل سؤالاته إلى الغد، الصباح الباكر على الأقل.

كان مشْتاقًا معها ولكنها قبل أن تعطيه ظهرها سألته:

ـ أنْتَ جن واللا ِإنْس؟

شعرت بوهن السؤال، كان صوتُها يرشّح بـالعطف والحنان، والرغبة في البوح.

أشار لنفسه وهو يرد عليها فرحا:

ـ أنا البرنس

قالها، وارتد بصورة غريزية مبتعدا عن النور الذي يطل من عينيها. لأنه كان يعرف أنه يكْذب ولابد أنها ستدرك هذا. قال لنفسه. إنه سيبقى هكذا حتى الصباح، لا يسـتطيع النوم حتى إن أراد. الفرحة ليست سيعاه، وتسبب له حالة من كرش النفس، كان مرهقًا حتى من السعادة.

قبل أن يأتيهما النّوم. تناهت إليهما أصوات الأطفال، الذين يلعبون ألعاب تلك الأيام العسكر والحراميـة، المسـلم والنصراني، السني أبو دقن والفسدان أبو كرش، كان اللعـب يتم وسط أكوام الزبالة وبيوت الصـفيح وبقايـا السـيارات، أغمض عينيه، فصارت تأتي إليه في الأحـلام شـعر أنـه ينجذب إليها بطريقة لا يمكنه معها مقاومتها، لقد ناما فـوق مهدٍ من الغيوم. وليته وليتها ما ناما من الأصل والأساس.

وشْ الفجرية، عندما كان الصباح يتـنفس، والنـدى يسيل على الأشياء طلع سواقِ التريللا من الغُرزة القريبـة، وراءه التباع والشيال وتباع المقطورة. كـانوا قـد مصـو فصوص الأفيون وحلقوا مع أنفاس الحشيش، ورغوة البيـرة ما زالت طافية فوق سطح جوف كل منهم. تبولوا في الهواء تباروا في ارتفاع خيط بول كل منهم، والمـدى الـذي مـن

الممكن أن يصل إليه التبول أمامه. وأخرج كل منهم ريحـه. وتراهنوا من الذي يحدث صوتًا أعلى من الآخرين وفي كل الحالات، كسب السائق الرهان الذي لم يدفعه أحد.

نظر السائق إلى العربة التي كانت جديـدة بعشْـق. كانت تقوم بأول مشاويرها، وأجرة الحمولة هي أول فلـوس تدخل جيب صاحبها من عرقها.

قال الشيال: إنه سيشيل الطوب مـن أمـام وخلـف العجل، منعه السائق قال له: إن موتور العربية جديـد لـنج، يمكنها جرها وتحريكها من فوق الطوب، وإلا أعادوها لمـن اشتروها منهم. إن ثمنها شقلة كبيرة ولابد من تجربتها جيدا.

فِعلٌ فاضِح في الطريق العام

كانوا يعرفون أن الولد هو صبي الميكانيكي، وعندما جاء الميكانيكي اتهمه بسرقة المفتاح الذي كان يضعه تحت رأسه، من الورشة، ليلة الأمس، وقال إنه سيغسلُه من النجاسة قبل أن يستعمله.

أما البنْت، فلم يتعرف عليها أحد، ولم يذْكر أي شخص من الواقفين اسما لها.

قال الضابط:

- بسيطة.

سيدون أمام اسمها: مجهولة، وستظل هكذا غير معروفة في أوراقه حتى يظهر لها أهل.

عندما جاء الضابطُ إلى المكان الذي لم يكن نظيفًا، وجد الناس يتجمعون، بصورة جعلتْ وصولَه إلى مسرح الحادث صعبا. طلب من العساكر طرد خلق الله من حول المكان بأسرع ما يمكن.

حرز الأشياء التي وجدت بالقرب من القتيلين، فَردة حلَق صفيح، وفردة شبشب من البلاستيك، ومفتاح كبير

يستخدم في فك وتركيب أجزاء السيارة، ومخدة تـاه لونُهـا الأصلي، من دم البراغيث والبقّ واكتسبت لونًا لا اسم لـه، وصرة صغيرة لم يعد لها شكلها المستدير، الذي كانت عليـه قبل الحادث.

كان الذباب مكوما علـى اللحـم المعجـون بالـدم، ونفايات الطريق، وفضلات الناس التي ما زالت تلمع علـى جزء من أرضية الشارع. كان المكان مغمـورا بالضـياء. والخلق أتوا من كل جزء يحيط بهم، وبقايا الولد والبنت على الأرض مغطاة بورق الجرائد.

الواقفون أجسادهم منتنة، رائحـة عـرق مختلطـة بروائح اختمار بول وتحلل براز وشعور منفوشـة وثيـاب قذرة.

من قبل كان الضابط يتعجب من حب صديقته للكلام. هذه المرة يبدو أنها أكلت قبل حضورها فقط " سد الحنـك " منذ أن تحركا من القسم، وهي صامتة، وصمت النساء.

يخيف.

جمع في ذهنه ما سيكتبه في المحضر الذي سيحرره بالحادث. عين له حراسة على بقايا الجثتين، وهو يقوم بعمله

الروتيني، نظرت صبرة عابدين إلى بقايا الطفلـة التـي لـم يتعرف عليها أحد، همست لنفسها: غزالة شـاردة. شـعرها الطفولي، الذي كان مسبسبا، يحجب بقايا وجهها عن ضـوء شمس الصباح.

عاين العلامات التي تركها عجل عربية النقل علـى الأرض، ورسم بالطباشير خطوطًا علـى الأسـفلت، وهـو يرسم، اقترب منه شيخ تخين، كرشه متدل أمامه، ومسـبحته تصل إلى الأرض. قال إن ما جرى لا يزيد على كونه فعلا فاضحا في الطريق العام، وربما كان انتحـارا بعـد الفعـل الفاضح مباشرة، فما ذنب سائق العربة الذي هرب بها ولـم يمسكه أحد؟

فتح الضابط النوتة الصغيرة التي بيده، دون فيهـا " فعل فاضح في الطريق العام، اقتربت منه " صبرة عابدين "، نظرت وقرأت ما كتبه. طلبت منه أن يشطب ما دونـه، وأن يعدله، وأنه يجب ألا يكون قاسيا مع طفل وطفلة ميتين.

افهمها أنه وصف ما جرى بدقة. قالت إنـه أخطـأ، والغلط مردود، نفخَ بضيق: قَلُم الضابط لا يعرف الغلط سكته إليه أبدا، قالت بصوت أكثر علُوا من الأول: إن القلم الذي لا

يخطئ لا يصيب، فالخطأ والصواب من طبائع خلق الله، رفع إصبعه محذرا: إلا ضابط البوليس.

قال لها: إنه مستعد أن يراهنها أن السيد وكيل النيابة سيتفق معه في توصيف الحالة. وربما وقع عليهما - الطفل والطفلة، أو الولد والبنت - عقوبة الفعل الفاضح في الطريق العام، أما هي فقد كانت قد فقدت الرغبة حتى في مناقشته.

كانت " صبرة عابدين " تحن إلى كل أطفال الدنْيا. ما أن تشاهد طفلاً حتى تشعر بالجرح الذي في أعماقها طريـا. تنز الدموع تحتَ الأجفان. تحلُم. تتمنى أن تمنح كل أطفـال العالم حليبها الدافئ المسكر.

غمغمة في القلْب، نهنهةٌ في الصدر، حزن لا حـدود له يهد كيانها نظرت إلى الواقفين يتفرجون، سـألت نفسـها: أليس هؤلاء الرجال والنساء آباء وأمهات؟ أليس لهم أطفـال في مثل سن الولد والبنت؟

سألت عن الولد، وسألت عن البنت، كـان صـوتُها مثقلاً بالعطْف والتفهم، عندما نطقت، مسح صوتها التـراب المتراكم فوق المناطق التي ما زالت ناعمة في حبات قلـوب الواقفين.

هل ماتا جائعين؟ هل كانا عطشانين لحظـة مجـيء الموت إليهما؟ سألت الواقف بجوارها. بدلاً من أن يجيبهـا، أشار إلى رأسه. قال: إن هذه البنت جاءها لطف في عقلهـا. ما دام الموت قد أتى، هل تفْرق أن يكون الـبطن ممتلئـا أم خاويا؟

قبل أن ينصرف الضابط قالت له صـبرة، لابـد أن هناك فاعلاً، ولابد من البحث عنه، بدلاً من الحكـم عليهمـا بهذه الطريقة. كان من الصعب عليها أن تتصور ولو بعـين الخيال قسوته المتناهية " فعل فاضح فـي الطريـق العـام " كيف؟ كيف؟ كيف؟ هل هناك ما هو أكثر من موتها؟ قال لها الضابط:

ـ لقد نالا جزاءهما.

اشتبكت معه في حوار أوشك أن يتحولّ إلى عـراك والمشكلة أن العساكر حوله يرون ويسمعون ويتابعون. طلب من العساكر الابتعاد وتَفْريق الناس هربـا مـن الفضـيحة والجرسة، خاصة أنها بدأت تتوعد الضابط.

قالت لنفسها:

ـ اللي راح كلب.

نظرت ناحية الأفق:

ـ واللي جاي سبع.

وكلما تذكّرت شكل الطفل والطفلة، توشك أن تَغْرقَ في طوفان من الدموع.

كانت ارتعاشات الروح في الطريق إليها.

ظلالُ الطيور البعيدة

١ ـ ذَهب ليس أصفر

كانت سماعة التليفون من الذّهب الخـالص، وكـان صاحب البيت قد أكمل عامه التاسع في ديار العرب، يعمـل طول النهار، وجزءا من الليل، في ثلاث شغلانات، ويحسب فيما تبقى من الليل، ما جمعه وما أنفقه وما ادخره.

يتُوه عقلُه في غابة الأرقام التي لا أول لها ولا آخر. وإن كان لا هدف له سوى إسعاد زوجته وأولاده الذين تركهم في البلد، بدون رجلٍ معهم.

كلما كبرت الأرقام التي ادخرها وارتفع سقف المبالغ التي حولها. قال إنه الثمن الذي قد يساوي غربته عنهم، وعن بلاده، كل هذه السنوات.

أمسكت نازك بسماعة التليفون، التي كانت من الذهب الخالص، وكان يضايقها أنها من الذهب الأصفر، مـع أنهـا سمعت أخيرا إن إحدى صديقاتها قد اشـترت تليفونـًا مـن الذهب الخالص، ولكنه من الذّهب الأبيض، الذي هو أغلـى وأقيم وأثمن من الذهب الأصفر.

قلن لها، إن الضيوف الذين شاهدوا تليفون صاحبتها، قد تراهنوا، إن كان من الفضة أم الألمونيوم؟؟ وعلى الرغم، من أن الرهان، كان على مبلغ يتعدى ألوف الجنيهات، يصل إلى حضن وقبلة، وربما مضاجعة إن حدث الوفاق.

إلا أن الرهان، لم يكسبه أحد، لأن المفاجأة الحقيقية. جاءت عندما أعلنت الصديقة المتفوقة عليها، التليفون، لـيس من هذا ولا من ذاك ولكنه من الذهب.

سألوها في نفس واحد:

ـ ذهب ليس أصفر!

قالت، ولا يوجد في بر مصر سـواه، إنـه تليفـون وحيد.

من يومها، ونازك تنوي أن تطلـب مـن زوجهـا المتغرب، عندما يتصل بها، إحضار تليفـون مـن الـذهب الأبيض الخالص. ولكن على شكلٍ مثير وغريب، ولم يدخل مثله بر مصر من قبل، حتى تتفوق علـى الجميـع، نسـاء ورجالاً، ألا يكفيها أنها تعيش محرومة من رجلها كل هـذه السنوات؟

كان الليلُ قد جاء، وذهب النهـار بحـره وعرقـه وترابه، وكل هؤلاء الناس الذين يملأونه من الفجـر وحتـى لحظة انتصاف الليل. وكانت نازك قد بدأت تعاني من ذلـك الإحساس الذي يكبس عليها، كلما نزل الليل وهي في البيت.

تشعر وإن كانت لا تعرف السـبب، أن البيـت قـد أصبح قبرا وأن قميص نومها قد تحول إلى كفـن، وتـرى بعيني رأسها جنازتها وصوان العزاء وفتحة القبر.

داخت من اللف على حكماء القبر. لعل أحدا يشـفيها من هذا الكابوس اليومي، ولأن كل نصائح الأطباء تراوحت بين سرعة عودة زوجها أو سفرها إليه، وكلتاهمـا مشـورة غير واقعية، ومستحيلة التنفيذ، فقد اكتفـت مؤقتًـا بتعـاطي الأدوية وأن تحول هذه اللحظة الفاصلة بين النهار والليل إلى اتصالات تليفونية ترسم من خلالها شكل السـهرة ومكانهـا والذين سيحضرونها، وما سيجري فيها.

طلبت نانا ـ التي كان اسمها نـازك ـ واسـتبدلته مثلما بدلت الشقة والملابس والسيارة والنادي والكوافير. فقد حطّمت كل ما كان في حياتها القديمة، طلبت نانا، صديقتاها

سوسو، التي لم تكن تعرفها إلا من أيام فقط والتي كان اسمها إلى وقت قريب، مكاسب.

قالت نانا لسوسو، إنها قـررت أن تقـيم لهـم فـي قصرها، وهي تعرف أن كلمة قصـر تقـال تجـاوزا، لأن الموجود فعلاً لا يزيد على فيلا كحيانة، ستقيم لهم " برتيتة " هكذا عرفت الكلمة أخيرا، ولكن سوسو قالـت لهـا الكلمـة الصحيحة هي بارتي. وأن معناها هو اجتمـاع الخلـق مـع بعضهم من أجل اللمة والونس والسهر فالوحدة تقتل الإنسان في عز الشباب.

قالت نانا إن هذه البرتيتة. ذلك أن أمامها وقتًا لـيس بالقصير حتى تتعود على نطق الكلمة الجديدة ـ لم تحـدث من قبل. بل وسيحدثون عنها كل أيام العمر القادمة.

طلبت نانا، نازك سابقًا، من سوسو، مكاسب من قبل أن تُحضر معها كلبها الواعر، وأكّدت عليهـا أن حضـور الكلاب أهم من مجيء كل أفراد الشلة.

حاولت سوسو أن تستفهم منها. رفضـت نـازك أن تُبوح بسرها. قالت إن المفاجأة لو احترقت لن تصبح مفاجأة أبدا، قالت لها سوسو، إنها لو أحضرت كلْبها، قد يشعر بحالة

من الضيق فهي، أي نانا، لا تربي كلبة في بيتها، وكل مـا عندها من الحيوانات الأليفة، مجرد قطة سيامية.

أغلقت نانا التليفون وهي تقول:

ـ هِية دي المفاجأة!

٢ ـ كلٌ يعشق قِطة

تسحبوا

جاءوا فُرادى مثل كل ليلية.

تسلّلوا. كل رجل بدون زوجته، وكل امرأة من غير رجلها.

وعندما أطلت عليهم نازك هانم، وقفوا جميعا، عدت الرءوس، اكتشفت أن عدد النساء أكثر مـن عـدد الرجـال بكثير، هفّ عليها الغم نفسه الذي يكبس على أنفاسـها كلمـا تناقص الرجال، وتساءلت: متى يتساوى العددان؟

جلسوا، متولي الأشقر التاجر، يقولون عنه من وراء ظهره. " برميل اللحم ". يعلوه وجه طافح بالشهوة، والرغبة في الامتلاك. لا يهم من تكون المرأة، مطلقة، أرملة، عانسا،

زوجة في حالة خصام مع زوجها. المهم أن تضـاف إلـى قائمة نسائه.

خليطٌ عجيب من خلق الله. أزواج، آبـاء، جـدود، زوجاتٌ مهجورات، نساء وحيدات لا يـربط بيـنهن سـوى صداقة البرنسيسة نازك هانم. ما دام زوجها في بلاد العرب، وعندما يحضر الزوج، ويقولون عنه سرا، المرسـال الـذي جاء من بلاد العرب. يقضي في المحروسة شهرا.

يقررون الصيام عن اللقاء شهرا، بعد أيام قليلة تنهار المقاومة، فيرتبون اللقاء في شقة صغيرة مؤقتًا، لحين عـودة المرسال إلى المكان الذي جاء منه، يقارنون بين فخامة بيت نازك هانم، وتقشف الشقة البديلة فيقولون: إن السـبب هـو حضور المرسال، تُحبك النكتة، يتساءلون: وهل طلب منـه أحد الحضور حتى يحضر؟

- كلب يجامع قطةٌ، تصوروا.

فجرت نانا قنبلتها الليليـة. ووقفـت ترصـد ردود الأفعال، على هذا الذي لم يحدث من قبـل أبـدا، ولا فـي حواديت أمنا الغولة والشاطر حسن وست الحسن والجمال.

طاروا من الفرح، فرقعوا بأصابعهم فـي الهـواء. ضرب كل منه كفًا بكف.

ـ عكروتة نازك هانم.

قالت نازك هانم، إن القطة أخبرتها ساعة العصاري، أنها تطلب الذكر، وعندما عرضت عليها أن تحضر لها قطًا سياميا. رفضت القطة وقالت إنها تطلب كلبا، بالتحديد كلـب سوسو هانم.

اندهش الحاضرون من القطة التي طلبت الذكر، وإن كان الموضوع لم يدخلْ دماغَ متولي الأشقر أبدا. تساءل في خاطره، هل لم تجد هذه النازك سوى الكلب؟ هل خلت البلاد من الرجال حتى تفكر في الكلب؟ ربما تـدرب الكلـب مـع القطة أولاً، حتى يعرف كيف يشبعها بعد ذلك، زيتهـا فـي دقيقها، ولا تجري وراء قصص الحب الفاشلة، وتشتري كلبا لنفسها.

ازداد الصخب عندما تعجبت إحدى الحاضرات مـن كون القطة طلبت كلبا بعينه ليس أي كلب والسـلام، ربمـا كانت قد حطت عينيها عليه من فترة. قالت أخرى، إن القطة أشجع منهن جميعا. تعرف جيدا ماذا تريد؟ وتطلبـه دونمـا

خجل. " حسرة علينا " البكماء نطقت، والناطقـات أصـابهن الخرس، ماذا جرى للدنيا؟ انقلبت الحال.

أحضروا الكلاب والقطة، أوقفوا القطة أمامـه، ولأن أرضية الفيلا ذات مستويين: واحد عال، والآخر مـنخفض، مثل بيوت كل الأكابر، فقد وقفـت القطـة فـي المسـتوى المنخفض، والكلب وقف في المسـتوى المرتفـع، وتحـول الحاضرون من الرجال والنساء إلى حلقة حولهما مـن كـل جانب، رفعوا ذيل القطة، وبدأوا في الطبطبة عليها، ولكـن الكلب الواعر لم يكن معهم، طلبت منهم نازك هانم الابتعـاد قليلاً. ربما أصاب الكلب الخجل.

سال جدول من لُعاب الكلب على الموكيت الفـاخر، بدا لمعانه واضحا تحدثوا، ولكن الثرثرة والضحكات كانـت تخفي قلقهم من نهاية هذه الحفلة سأل الكلب الـذين يقفـون حوله:

ـ أين أفض بكارتها؟

رد عليه التاجر، الذي يعد أكثر الحاضرين ثراء:

ـ نقبك على شونة.

كان الكلُ حزينًا، وتجولت عيناه في الوجوه الملتفـة حوله، وأخرج لسانُه الطويل. حركه في الهواء ببطء، وأدخله في فمه، مط جسمه عن آخره، وتمطّع وهـز ظهـره هـزةً عنيفة.

رأى متولي الأشقر استسلام القطة اللذيـذ. ولُهـاثَ الكلب الأجوف، ففقد كل قدرته على المقاومة. أصابته حالـة من الهياج، أصبحت معلقة فوق رأسه في الهواء، لم يعـرف كيف يقاومها؟

صرخت فيه مكاسب:

ـ أودي وشي من الناس فين؟ فضحتني واللي كـان كان.

القطة وقفت ساكتة. كان الحاضرون يقلـدون أصوات القط الذكر عندما يطلب أنثاه، تتلفت القطة باحثة عن مصدر الصوت. كان لمعان عينيهـا قويـا. وكلمـا خفتـت الإضاءة، حيث يجري المشهد المثير، أصبح شعاع عينيهـا أكثر حضورا.

ولعبت الأشباح على الجدران، نظروا إلـى تهاويـل الظلال على الحيطان وفي الظلام، كانت الفيلا تلمع أكثر من

اللمعان نفسه. حركوا الكلاب تجاه القطة. قال متولي الأشقر لنفسه:

- ما الذي يمنعه من تذوق حلاوتها؟ رفع أحدهم قدمي الكلاب الأماميتين فوق القطة فكادت تُخَربشُه.

ضحك التاجر:

- مسكينة رضيت بالهم. ولكن الهم لم يرض بها.

٣ - فعل غير فاضح في قلب القصر الكبير

فوجئت الحاضرات، وفوجئ الحاضرون بالتاجر متولي الأشقر، الذي يقولون عنه في غيابه، إنه حرامي كبير يخلع ملابسه، ويصبح عاريا كما ولدته أمه. كان كرشه ضخما، ولحمه يتدلى من أكثر من مكان، وقدماه رفيعتين، وقد تعجبت الحاضرات والحاضرون: كيف تحمل القدمان هذا الحمل الضخم؟

وعلى الرغم من أن النساء رفعن أيديهن، حتى لا يرين هذا المنظر الفاجر، إلا كل واحدة منهن، حركت أصابع يديها التي تُغمي بها عينيها، حتى ترى من النافذة التي بين الأصابع، الرجل العاري، وتبحث بعينيها عن عضوه.

قال متولي الأشقر وهو يداري نفسه:

ـ يكفينا شر العين.

هجم على القطة وهو يصيح:

ـ سيبوني عليها

وقبل أن يصل إليها، هجم عليه الكلب، هبره من مؤخرته، ولم يتركه إلا وبين أسنانه قطعة من الإليتين، بعد أن تناثرت دماؤه على الحاضرين.

صاح واحد مثقفٌ:

ـ الغيرة أكبر محرك للتاريخ.

قال التاجر:

ـ كلب مسعور.

علقت امرأة:

ـ البلد كلها أصابه السعار.

ضحكت نانا، وقالت لمتولي الأشقر:

ـ بكرة تبقى كلبا ويعملوا لك حفلة زي دي.

أكملت سوسو:

ـ بس يوميها، أبقى ورينا شطارتك.

بحثوا عن مستشفى الكلاب، قيل لهم: إن المستشـفى الوحيد في العاصمة، يغلق أبوابه في السـاعة الثالثـة بعـد الظهر، حسب مواعيد العمل الرسمية، ولا يفتح أبوابه سوى في صباح اليوم التالي.

وعندما استدعوا طبيبا خاصا جاء مسرعا، وقال، بعد أن عاين الحالة: إن الحكومة تحتكر مصل الكلاب، وذلك من عجائب الزمان. وإنه لن يقترب من المصـاب إلا بعـد أن يحرر محضرا في قسم الشرطة الـذي يتبعونـه جغرافيـا بالواقعة وبعد أن يعترف الكلاب بما جرى، ويشـهد الشـهود بذلك، بعد هذا فقط يمكنه أن يحضر المصل الانفتاحي مـن تحت طقاطيق الأرض. وإن كان سعره نارا.

٤ ـ محضر معاينة

لم تكن هناك مسافة طويلة بين عزبة الصفيح والفيلا، خطوة واحدة وتنقلب الحال، من الفقر والجدعنة، إلى العـز الذي هو بهدلة، بلاغان مختلفان والمكان واحد. فقـط خـط السكة الحديد، الذي يعبره المشاة على أقـدامهم، وأصـحاب السيارات لهم مزلقان لا توجد عليه إشارة.

من كثرة الذين تزهقُ أرواحهـم، مـن القطـارات البطيئة المتجهة إلى المخزن أو الخارجة منه. سماه سـكان عزبة الصفيح مزلقان الموت. أما أصحاب الفيلات فقد قالوا عنه مزلقان التحديد الفاصل بين أولاد الناس، وأولاد الإيـه، تلك الكائنات التي لا يوجد مبرر وحيد لمجيئها إلى الحياة.

في الطريق من العشش إلـى القصـور، حاولـت " صبرة عابدين " أن تتكلم مع الضابط. ولكنها حبست الكلمات بداخلها. أشاحت بوجهها إلى الناحية الأخرى. نظـرت إلـى الأطفال العراة، الحفُاة، الذين يلْعبـون وسـط الـدخان فـي الحواري السد والأزقة الضيقة.

دخل الضابط إلى الفيلا. صمت كصـمت المـوتى، سكون مثالي. حذر، والعيون مسمرة تنظـر فـي الفضـاء الفراغي، الممر المؤدي إلى الفيلا، تسـيجه مـن الجـانبين أشجار رقيقة الطريق من الباب الخارجي إلى الباب الداخلي نفق من الخضرة، أرض معشوشبة، يغطيها عشْب معتنى به، وعلى الجانبين ووراء الجانبين أشجار مهذّبة علـى أشـكال غريبة.

شجرةٌ تأخذُ شكلَ رجل، وأخرى أصبحت مثل حواء الأولى، في الزمان الأولى، لا يغطي عريها سـوى ورقـة التوت، وشجرة ثالثة كأنها طائر يحلق في العلالـي، البيـت مبني بطوب أحمر، يمكن عد الطوب، طوبة طوبة فيه. وبين الطوبة والأخرى خطوط، النصف الأعلى خطـوط فضـية، والأسفل خطوطه ذهبية، والسقف على شكل جمالون. يـذكّر من يراه ببيوت باشاوات الإنجليز، التي تركها بعد الثورة.

قال الضابط لنفسه، إما أن يعيش الإنسان في مثل هذا البيت، وإلا لا معنى للحياة، ولا طعم، أما هي فقال بصـوت سمعه واضحا:

- إنها حوادث البيوت الأنيقة.

همست:

- كل ثروة كبيرة، تخفي وراءها جريمة أكبر.

أشارت إلى الناحية التي قدموا منها وقالت:

- وهكذا تاه الوطن بين تطرفين: علـب الصـفيح والبيت المبني من العاج والأبنوس والذهب والفضة.

سور خارجي، وسور داخلي، وفي المسـاحة بـين السورين، ثمة سيارات كثيـرة، مـن أحـدث المـوديلات، وأفخمها. كلها تلمع. سيارات من المرايا.

سيارات جميلة مثل البيت الذي رآه، ومثـل نسـاء البيت اللاتي لم يرهن بعد. وصل الضابط إلى البيت وقـت الضحى، مدت له ربة البيت يدا صغيرة، ناعمة ومعطـرة، نظرت في وجهه محدقة،

الكلمات الأولى: سعل الضابط وصفى حنجرته، وأخذ هيئة المحقق واستعد للسؤال الأول.

الردود الأولى: ردت عليه وهي تميل برأسها المتوج بكتلة من الشعر البني الغامق إلى الوراء، شـعرها ينسـدل خلفها، ونهداها يندفعان إلى الأمام في تحد مثير.

غمز الضابط بعينه اليمنى بسعادة وألفة لنازك هانم، وهو يصبح عليها، سارت أمامه، كان في مشيتها نوع مـن الارتخاء المحبوب والمحسوب. قال في نفسه: متى يسـرح جسمه ويستريح في ملابس زوج هذه المراة المركونـة فـي دولاب ملابسها، تفوح منها رائحة العطانة وتسرح فيها العتّة

منذ سنوات مضت؟ وكان صوت نازك هانم أحن الأصـوات التي استمع إليها في عمره كله.

كان التاجر الثري الشحيم اللحيم ممددا على وجهـه والضمادات متناثرة عليه، والطبيب يعالُجه، والكلب واقـف بعد أن كتفوه وربطوه في الحديد، أما القطة فلا أحد يعـرف أين أخْفتها نازك هانم خوفًا من رجال البوليس.

كانت نانا قد رفضت مـن البدايـة مسـألة إبـلاغ البوليس، خوفًا من الجرسة والفضيحة. وقالت وهي في ذروة غضبها قبل أن يصل الضابط إلى البيت. إنها ستكون المـرة الأخيرة التي تفتح لهم فيها بيتها. وهم لم يصـدقوا تهديـدها لأنها سبق أن أوقفت سهراتهم من قبل لفترة قصيرة، وعندما أوشكت أن تصاب بالجنون استأنفت السهرات، وكأن شيئًا لم يكن. ومن يومها وهي لا تستطيع فراقهم ليلةً واحدةً.

نظر الضابطُ " بدر بحلق، إلى المكان، بدا له وكأنـه قد وجد من أجل الفرجة عليه فقط، تمحك وهرش في عرض الهيافة. وقال إنه لابد من معاينة المكان كله. فكر أن يطلـب منهم أن يمثلوا أمامه ما جرى ليلة الأمس مرة أخرى.

حوله نساء من الترتر. يرتدين ملابس سهرة سوداء، بين أصابعهن سجائر لم يرها مـن قبـل، حـولهن كئـوس الشراب ومن صدورهن يطل الشبق المثير، وحول شعورهن يتقاطع العطر الفواح، وخلفية الصورة معلق فوقهـا كلمتـان فقط، إنه الفراغ.

طلب أن يلقي نظرة على غرف الفيلا الأخرى حتى يأخذ فكرة كاملة وشاملة عن مسرح الجريمة، غرفة نومهـا كانت غرفة المرايا. مرايا في كل الجهات الأربـع وتحـت وفوق. مركبة بطريقة تجعلك عندما ترى نفسك فأنت تـرى ألف شخص متناثرين يتحركون في نفـس الوقـت. شـعر الضابط " بدر بحلاق " أن متعة الجماع هنـا لا تعادلهـا أي متعة أخرى في هذا العالم.

توقف الضابط في المطبخ. كان الهواء مكيفا وعلـى سفرة المطبخ الصغيرة.

شوكة واحدة، وسكينة بمفردها، ملعقة لا ثاني لهـا. كل شيء فرداني نظر إليها وسأل:

ـ كل هذا الجمال ووحدانية؟

تسللت النعومة إلى صوتها وهي ترد عليه:

ـ بختي.

تمتم:

ـ قِسم.

عندما عاد إلى الصالة التي يقفون فيها، اكتشف أنه نسى " صبرة عابدين ". كانت تقف في جانب، وخلق الله كلهم في جانب آخر. هكذا هي. أي خطأ ارتكبه بإحضارها معه؟ في أيامه الأولى نصحه ضابطٌ كبير أن يبعد علاقاته النسائية عن مسكنه وعمله. الآن ربما يتطور الموقف إلى ما لا تحمد عقباه، قد تفضحه هذه الصبرة التي لم يحصل على ما يريده منها، ويبدو أنه لن يحصل منها على أي شيء مهما فعل، ومع هذا هو يخطئ ويحضرها معه في مهمة عمل.

قال التاجر الثري إن كل المطلوب من حضرة الضابط هو تحرير محضر، مجرد محضر إثبات حالة، ربما يحتاجه من أجل العلاج، لأن الحكومة تحتكر مصل الكلاب، وهم عموما قد اتفقوا على ما سيقولونه لحضرة الضابط.

عرضت سوسو هانم أن تدفع أي كفالة للكلاب، فهي لا يمكن أن تسمح بحبس كلبها لأن ذلك سيؤثر على حالته النفسية، خاصة أن الحجز في القسم فيه دائما أناس أقل من

مستوى الكلاب المعيشي. عرضت على الضابط، أن يأخـذها مع كلبها حتى لا تحدث له حالة مرضية. لا تعـرف كيـف تعالجه منها في الفترة القادمة.

طمأنها الضابط ـ وعيناه على صـبرة، يحـاول أن يخمن ردود أفعالها ـ قال إن الكلاب سـيكون فـي الحفـظ والصون لحين عرضه على النيابة. وإن كان هنـاك أدنـى شك، سيدخله مستشفى الشعب لعلاج الحيوان، ويعـين لـه الحراسة اللازمة. ويمكنها في هذه الحالة نقله إلـى الدرجـة الأولى، وتدفع هي الفارق بين العلاج المجاني والمخصوص.

تدخل الحاضرون لدى متولي الأشقر لكي يتنازل عن بلاغه، أكدوا له أنه سيعالج في مستشفى الكلاب دون أن يسأله أحد عن الكلاب الذي عضه. والضابط تطوع وقـدم الكذبـة المطلوبة في مثل هذه الحالات، وهـو يتمنـى ألا تسـمعه الإنسانة التي أحضرها معه. قال إن متولي بيـك يمكنـه أن يكتب في أوراق المعهد، أن الكلاب الذي عضـه هـو كلـب ضالٌ، وأنه فر هاربا، بعد العضة، ولم يتمكن من الإمساك به بسبب الخوف منه.

نظرت النساء له بإعجاب وولـهٍ ورغبـةٍ، صـفّقت واحدة جميلة، وبالمناسبة كلهن جميلات، بيدين مثـل أيـادي حوريات الجنة وصرخت قائلة بفرح طفولي لا يتناسب مـع أنوثتها المتفجرة.

ـ ما يجيبها إلى ظباطها.

ندم الضابط لأنه تسرع بإحضار خميرة العكننة التي لزقت له ولن تتركه ولا بالطبل البلدي. لو أنه تحـرك قبـل حضورها بقليل. كان قد صال وجال هنـا، وخـرج ومعـه مواعيد لكل ليالي الأسبوع القادم، ولأصبح مثل شهريار كل ليلةٍ جسد جديد لم يتعرف عليه من قبل. حظوظ، قليل البخت من يحضر صبرة، وصبرة دون سواها. وهو في طريقه إلى جمهورية النساء الجميلات.

٥ ـ محضر صلح

وهكذا تحول محضر إثبات الحالة إلى محضر صلح. بعد أن اتفق الضابط مع صاحبة البيت على أن يعـود فـي المساء، لكي يستكمل المحضر ويحصل على توقيعها عليه.

سأل الضابطُ صديقته، التي أوشكت أن تنفجـر مـن الصمت:

ـ شُفت متاعبنا؟

قبل أن ترد سألها من جديد:

ـ مين فينا اللي بيدور على المتاعب؟

قالت له بحدة:

ـ إنها دعارة وليست متاعب.

أكملت أن هناك من يحلُّ مشاكل الناس، وهناك مـن يخلُها لهم ويتفرج عليهم وهم مرتبكون غارقون في بحيرات الهموم الصغيرة. وفرقع بأصابعه مقلدا إعلانات أيامه:

ـ هناك فرق.

ردت عليه:

ـ وأنا مصممة عليه.

قالت في نفسها، إنه يذاكر جيدا الكلام الطافي فـوق أيامه ولياليه، سألته فجأة:

ـ هيه الناس عندكم بفلوسها واللا بنفوسها؟

شوح بيده:

ـ بالك رايق وعقلك بيودي ويجيب.

صرخت فيه:

ـ وعقلك أنت بيحسب كام؟

هذه المرة أدرك أنه لا فائدة من الرد عليها. أما هي فقد حلّقت بعيدا مع أفكارها. همست في عقل بالها: لا أعرف كيف اقتربت منه إلى هذا الحد؟ إنه ضابط. ولابـد أن فمـه قريب من أُذن حكومتنا الرشيدة. ويمكنه الكلام معها فـي أي وقت يشاء، وكلماته يصدقونها على الفور. لا يعطون أنفسهم فرصة تقليب ما يقوله في ضمائرهم التي يبدو أنهـا أخـذت أجازة مفتوحة ولكنها أجازة براتب وبدلات وإضافي والـذي منه. نظرت إلى الضابط، ألا يدرك هـؤلاء النـاس الآفـاق القاسية التي تنتظرهم؟ ألم يحدقوا من قبل بالهاوية التي تحت أقدامهم؟! ألم يرفعوا أبصارهم ليروا فصول الغضب الأربعة التي تنتظر دورها في الوصول إليهم؟

نظرت في داخلها، حـدقت فـي بئرهـا الخـاص وتساءلت:

ـ كيف أُصدق هذا الذي يجري أمامي؟

وبدأ كل واحد منهما يتحاشى الآخر.

النظرات الأخيرة:

نظر " بدر بحلاق " إلى " صـبرة عابـدين " توقـف نظراته عند هذه الحيرة المتراقصة في عينيها، كرهها لحـد الموت، بسبب براءتها، ولأنها لم تنحن بعد. حاول أن ينسـل بعيدا عن تلك الرغبة المستحيلة التي تشده إليها.

نظرت " صبرة عابدين " إلى الضابط. كم يبدو بعيدا عما يغلي في فؤادها، ويفور ويضطرب في أعماقها، كانـت مكفهرة القلب مكروبة الأنفاس. وصل الوجع حتـى عظـام صدرها.

ارتعاشَات الروح ـ محضر أول

الاعتماد على النّفس خير معان عن معانيها، هذا مـا تعلمتْه في طفولتي البعيدة. ويبدو أنه لا مفر من تنفيذ ذلـك الآن. لن أعتمد على حضرة الضابط أو غيره. لابد أن تكون لي تجربتي الخاصة مع موضوعي. الأمر لا يحتـاج إلـى معجزات، والمعجزة ولّى زمانهـا. المسـألة فـي منتهـى البساطة. علي أن أبحثَ بنفسي، وأن أجري وراء ما أريـده بمفردي. حتى لو كان ما أقوم به إكمالاً لما بـدأ الضـابط، فليكُن. المهم أنه لا عودة له بعد الآن.

ليلة الأمس، كتبت في أوراقي كلاما كثيرا، صـباح اليوم طالعته. من باب وصل ما مضى بما هو آتٍ. فهـالني أن أكتشف أن لدي القدرة على كتابة هذا الكلام الكبير:

" وطن يخضع بأكمله لعـدد قليـل مـن أصـحاب الكروش التي لا تعرف الامتلاء. كروش في سعة المحيطات وارتفاع السماء عن الأرض، ومتولي الأشقر واحد من الذين لا يعشقون سوى كُروشهم التي في استدارة الكرة الأرضـية نفسها.

الكلام السابق قرأته بصعوبة، لأن بعض أحرفه تبدو بصعوبة من تحت شطب. كتبت من جديد: " كيف يتصـالح الجوع والتخمة في حالة من السلام المستحيل، ومتى؟ "

مرة أخرى يطل الشطب برأسه. والكتابة أيضا مـن جديد:

" إنهم يحاولون رشوة الكُلّ حتـى الله فـي سـمائه العالية. لكي يغمض عينيه اللتين لا تغفلان ولا تنامان عمـا يفعلون بهذه البلاد ".

ثم مزقت الأوراق كلها في النهاية.

كيف أقاوم مـن الآن اهتـزازات القلـب ورجفـة الضمير؟ تاه وجهي وراء غيوم الأفكار التي تعصـفُ بـي. وتلك هي المسألة. ثمة حالة من القلق والإعياء. تلُف الوطن. في عيني المضطربتين ضوء يأتي من نفَقَي الخاص. نفقـي الداخلي. كنت أريد العودة إلى شرنقتي الخاصة التي غزلتها بصبر وأناة وتمهل ونسجتها من العتمة والسكون.

سألت نفسي: من تراه لا يشعر بالتيار الخفي الـذي يؤدي إلى اضطراب الوطن؟ كل ما شاهدته اليوم، سواء في عزبة الصفيح أو في قصر المرايا، سـيظل عصـيا علـى

التشكيل في صـيغة مضـبوطة مـن الكلمـات والصـور والأصوات.

بدا لها الضابط ينظر إلى الناس بعينـين بـاردتين. وجهه خال من أي تعبير. عاجز عن الإعلان عن أي انفعال، حتى عندما يحـاول جاهـدا أن يتغاضـب أو يتضـاحك أو يتحازن.

كانت تحب أن تقرأ وجـوه النـاس وتحـاول فك طلاسمها، وهذا الهوس هو الذي قادها إلى ضابط البـوليس. رفضت أصواتها الداخلية التي حاولت إبعادها عنه. تصورت أنه منجم بكر، وهي دائما تحدث لها حالة من النشـوة عنـد بكارات الأشياء الأولى، عندما تذهب إلـى أمـاكن جديـدة. وتدوس قدماها في أرض بكْر. تبدأ على الفور في القـراءة والتحديق في أعماق الناس.

كانت مثقلة بمعرفة. تعرف أكثر مما ينبغي، عرفت الكثير من طعوم الأشياء في حياتها. وإن كانت لـم تتـذوق حتى الآن ما كانت تسمع من العديد من المثقفـين الحـديث عنه. تقصد طعم الهزيمة الأولى. التي تبقى مرارتهـا معنـا

حتى آخر أيام العمر عندما تدوس الأقدام الغليظة فـي حبـة القلبِ.

البيتُ في سِكةِ النصر

١ ـ في البدء كانت: بوم

ألم يتعبا بعد؟ يسأل نفسه، فلا يردد الببغاء السـؤال وراءه. حتى الببغاء لا يعيد قول إلا ما يحلو له فقط. القصـة المعادة ما زالت تحمل لهما كل بذور الإغـراء، دود الأرض لا يملك سوى أن يحن لبعضه، وطيور العلالي، يبحث كـل وليف عن وليفة. لا يعرف الشّبع طريقه إليهما أبدا، أما هـو فذرات المال كرمال الصحاري، التي تهاجم العين، من كـل النواحي، هي الحقيقة المؤكدة.

حوصر مع وحدته أياما وليالي، لا يعرف عددها، فقد الإحساس بالفارق بين ظلال الليل وأنوار النهـار. تحـاول عيناه أن تتسكعا بين الألوان. لكن الألـوان كانـت تـولي هاربة. ولا يبقى بعد فرارها من الدائرة التي تراهـا العـين سوى الأصفر الباهت، المتموج مع نظرات العين إلى مـا لا نهاية، أينما ولى وجهه ينسدل أمامه سراب في صفرة الموت وشُحوب النهايات. هارب من الرمال إلى الرمال، فار مـن الصحاري إلى الصحاري، جفاف الحصار، من الجوع إلـى

فراغ البطن. من تشقق الشفاه عطشًا إلى الجوف الحامي مثل بطن الفرن من زغللة الأعين إلى تداخل المرئيات.

يبحث عن تقاسيم الألوان حوله. عن تباريح لـون دم الغزال. وهدوء اللّبني، وتحديد الأسمر والأمل الذي يشـيعه الأخضر. ولكن أمامه وخلفه شرقه وغربه. شماله وجنوبـه. فوقه وتحته. هذا الأصفر الكئيب، حتى السماء تبدو له أحيانًا مرآة لا تعكس سوى اللانهائي من التّماوجات الصفراء.

يبحث عن قدمه التي لم تعد قدمه ولا يجدها. يحاول الهروب عبثًا من اللحظة ولكنها تطارده. تحاول اصـطياده، يجاهد لكي يخلعها من فوق جدران الـذاكرة، والمشـكلة أن الذاكرة نفسها لم يبق فيها سوى هذه اللحظات ذات الرائحـة الصفراء. وعندما ضاعت قدمه التي لـم تعـد قدمـه كـان الأصفر آخر ما رأته العين.

رآهما معا. ذات يوم خريفي. حيث تصحو الرغبات قبل الناس. وتستدير أجساد النساء الجميلة في أذهانهم التي لا يعشش فيها سوى الحرمان والإحباط. ويأخذ الرغيف الساخن شكله في مخيلاتهم الجائعة قبل أن يخرجوا من دنيـا النـوم الوهمية. لهما أربعة أقدام قدما رجل وقدماه امـرأة. بالعـدل

والقسطاس، أما هو فقدم واحدة. عدد مفرد، على الرغم مـن أن كل أقدام البشر تقبل القسمة على اثنين. على الأقل عنـده غير ما عند الناس أجمعين.

دقات الساعة، يعدها ببطء. تبدأ قويةً في سمعه، ثـم يأتي التلاشي والذوبان مرة أخرى، في الأصوات الصـباحية المعادة والمكررة. وأخرى من هسيس السـكون، فـي هـذا الوقت من النهار. كان يذهب إلى عمله. عندما كان له عملٌ. وقبل أن يجري له ما جرى، الآن يركن قدمه الحديدية علـى الجدار، وينظر من النافذة، يتسلى برؤية الغبار السابح تحت ذرات ضوء الشمس. يتابع الذرات المعلقة التي تمنحها خيوط شمس الخريف الحياة يظل يتابعها حتى تخرج مـن تحـت الأشعة الذهبية وتبتلعها رمادية النهار.

يحافظ على هذه العادة، لأنه لا يوجد لديه أي شـيء آخر يفعله في هذا الوقت. يشعر بحالة من الضـيق الشـديد بسبب السكن في دور أرضي. مسكون بالبرد فـي الشـتاء، ويصبح القيظ أعمدة وجدرانا في الصيف. أما في الاعتدالين فلا يجد سوى الرطوبة.

لا مفر، أخذ الأطباء العسكريون كل ما أرادوا أخْـذَه منه. لحم وعظام ودماء، قدم بكاملها، حملوها بعيـدا، ولـم يعيدوها إليه. لا يعرف أين دفنت؟ لم يدلّوه علـى مكانهـا. وأخطأ هو لأنه لم يسأل عنها. ثم تاهت به الأيام بعيدا عنهم.

حمدا لله أنه كان في الغيبوبة الطويلة. ولـم يعـرفْ كيف أزالوا شعر الرجولة الكثيف الذي كان يغطـي القـدم. وكان يحلو له أن يسرح بأصابعه وسطه قبل البتـر. كـان الشعر قد تحول إلى خصلٍ حمراء قانية. بتأثير الدماء. كـان يحزنه أن القدم الحديدية تخلو من الشعر. ملسـاء وناعمـة وباردة. ظل التفكير في مكان قدمـه يعـاوده فـي بعـض الصباحات.

ما إن يمسك بالقدم الحديدية حتى يتـذكرها، يقـولُ لنفسه: إنه في الغد سيذهب إلى المستشفى العسـكري، لكـي يعرف أين دفنوا قدمه. وكان يؤجل المشوار يوما بعد يـوم. إلى أن كان نهار. قرر فيه الذهاب. لبس ونزل. شعر بنشوة طارئة وحماس لا يعرف مصدره. اكتشـف أن المستشـفى هدم. وأن مبنى كبيرا أقيم مكانها. يحرسه أفـراد البيرهـات الحمراء. يقفون أمام كشك يدور حول حزام أحمـر. تحتـه

حزام أبيض، حملته الألوان إلى الزمان الذي مضى. غمغم: الشرطة العسكرية.

أتاه فرح دافقٌ. قدمه في هذا المبنى. لا بد أنه متحف كبير مخصص يحفظ أجزاء من رفـاق القتـال. معـرض بطولات بشرية تُحصنّه الحراسة المشددة من كـل جانـب. فالأعادي يملأون البر. سأل واحدا من الجنود الشـبان عـن المتحف، فطلب منه الجندي الابتعاد عن المكان لأنه تجـري هنا مفاوضات حل عليه تعب مفاجئ هـده. أحـس أنـه لا يستطيع الوقوف، طلب شُربة ماء. وعندما جاء المـاء مـن داخل المبنى رفض أن يشربه. فكر أن يستريح ولكنه عـدل عن رغبته. أينما سرت لا تجد سوى الذين يتفاوضون. إنـه زمن المفاوضات الكلّ يفاوض الكل. المأساة أنهم يتفاوضون مع الأعادي. مع أن الأولى والأهم أن يقدروا على التفاوض مع أنفسهم أولاً.

في المستشفى الذي كان هنا. أعطوه بعد عودة وعيه إليه قدما حديدية لم يكره في حياته شيئًا مثل كراهيتـه لهـا. على باب المستشفى الذي كان، ودعوه بعد أن أصبح شخصا آخر. قال في سره: اختلاس طبيعي في زمن السرقات. دخل

على قدميه. لا. لا يجب الكذب في هذه الأمور. دخل علـى نقالة. ولكن بقدمين. واحدةٌ يشعر بها ويستطيع أن يحركهـا. والثانية تتطوح دون أن يدري. اختلط الدم والعظام واللحـم فيها.

خرج بعد التحسينات. قالوا له إنهم أنقذوا ما يمكـن إنقاذه. أكدوا عليه بضرورة السكنى في دور أرضي. لا مفر من الاقتراب من الأرض. ضاع إلى الأبـد زمـن التحليـق والأحلام ومعانقة السماء في وقت الأصيل الصافي. لن يحدق في الناس من العلالي، ولا يرى سوى الـرءوس، بعـد أن تصبح مجرد دوائر صغيرة، لن يشغل نفسه بالمقارنات بـين مساحات الصلع وغزارة الشعر ومفارق الشعر. لن يفكر في أنواع الدهانات التي استخدمت فـي دهـان الشـعور. لأن الروائح لن تصله. وقد يشمشم كما يشاء، فأنفه لم يستبدل بعد ولكن لا روائح.

تدور عيناه في كل الاتجاهات. فالعينان سليمتان لـم تقترب منهما قذيفة من قذائف العدا. وإن كان سـينظر فـي اتجاه واحد. إلى الأمام.

٢ ـ أينما تكونوا تدرككم: بوم

خرجا من باب البيت المقابل، فتـى وفتـاة. سـكان جدد!! تجري الحياة من حوله دون أن يعرف أي شيء عـن مجرياتها. من أين جاءا وكيـف تزوجـا دون أن يـدري؟ عصفوران مغرّدان، أصابع يديهما في حالة عنـاق. علـى صدرها يمامتان تحلقان أمامها. تدوس على الأرض بمقدمـة مشطي قدميها فقط.

تتشعلق بشاب عروقه نافرةٌ، عضلات جسمه تقـول إنه خارج لتوه من حلقة مصارعة.

يمشيان معا ببطء، كإنهما في فسحة، كلمـات وراء كلمات، تقول ويستمع تتعب من الحبور ومعانقـة الكلمـات، تنصت والشاب يتكلم. تتوقف فجأة. فيوشك أن تنفرط حبـات عقدهما، فيقف الشاب أيضا. تحولا إلى كيان واحـد بـأربع أقدام ورأسين، يبدو له الشاب وكأنه يبحـث بـين الكلمـات والتماسك والمشي عن استراحة، يقول لنفسـه: لا يسـتحق الاستراحة سوى المحارب القديم. هو الذي هده التعب فعلاً. قدم أجزاء من جسده ومساحات من روحـه. يـرد عليهـا

وتشرب عيناها كلماته. فتاة ناعمة. بكر. كأن خراط البنـات قد خرطها ليلة الأمس فقط. ينسى أمـام جمـال تقاطيعهـا وسمسمة وجهها حتى بكاء لحظات الانسحاب.

مضيا بهدوء، كأنهما يعومان فـي هـواء الصـباح الطري، ولامستهما نظراته حتى اختفيا. ومع هذا ظل معهما طول النهار، ما استطاع الهروب من طيفيهما أبدا. ما داما قد خرجا صباحا، فلابد من العودة ظهرا، هكذا يفعل كل الـذين يذهبون إلى هذا الشيء الذي يسمونه العمل.

جاء الظهر، أصبحت الشـمس عموديـة. واختفـت ظلالُ البيوت وحاصره صوت الآذان من الميكروفونات التي لا يعرف كيف يهرب من حصارها، ولم يعودا. شعر بقسوة الوحدة لأول مرة، مع إنه وحيد منذ أن بقـى فـي البيـت. وأصبحت كلمة سابق هي الوليف الوحيد لصفة الضابط، التي كان يفخر بها لحد الفشخرة الكدابة.

بحث في ذهنه عمن يسأله عنهما. لا أحد يحضر إلى الشقة سوى الغسالة وهي تأتي في مواعيد محددة، لا يغرهـا سوى القوي الشديد. باق من الزمن خمسة أيام وخمس ليـال على موعدها. كانت عنده أمس الأول.

وحتى بعد مرور الخمسة أيام بلياليها من أدراه أنهـا تعرف؟ وإن كانت تعرف كي يضمن أنها ستحكي وسـتقول؟ وإن تكلّمت هل ستكون صادقة؟

اليوم التالي: انتظرهما. دق قلبه بعنف لأول مرة منذ خروجه من المستشفى، شعر بدفء الدماء في عروقه. فـي الوقت المحدد خرجا من البيت الذي كان بالقرب من أعرض الشوارع كلها. طريق وليس شارعا أنشئ خصيصا من أجل المواكب والاستعراضات.. يلف يمناه حول خصرها النحيـل وتنام يسراها على كتفه. تمشي كما لو كانت معلقة به. توشك أن تطير في الهواء. تمشي بجواره وكأنها نائمة. وجهها يبدو وكأنه قد خرج الآن فقط من لوحة زيتية جميلة رسمها فنـان عاشق تقترب بفمها من أذنه. توشوشه. ثم تعضه في شـحمة الأذن. وتكركر الضحكات. ويتقافز الحبور على وجهها.

" أف " زفر بضيق " يا فتاح يا علـيم " ألا يكفيهمـا البيت المقفول عليهما وحدهما طول الليل؟ نحن في الخريف الآن. يتساوى الليل مع النهار ويطول وقت الوصـال. مـن المفروض أن يكونا متعبين في هذه اللحظة. كان يستمع فـي الزمان الأخضر الذي مضى ولن يعود. إلى الضباط يتحدثون

وقت الضحى، وهم يجلسون في المعسكرات، يستحمون فـي ضوء الشمس، ويستمتعون بالفراغ والكسل اللذيذين. يتحدثون وهم يتحسسون كروشهم، عن تعب كل مـنهم مـن الهنـك والرنك، يقول كل واحد بطريقة أو بأخرى، إنه يعـاني مـن حالة نفور من حريمه فور انتهاء الأمر. عندما يعودان إلـى النوم بعد المناهدة والتعب والفرهدة. يعطي كل واحد ظهـره لحريمه. ويتمنى لو كان هناك مكان آخر بعيد. يمكن أن ينام فيه. يثرثرون أمامه بحرية، فهو لم يدخل دنيا بعد ولا خجل من البحبحة، فمن يعرف زوجة الآخر؟ الحريم لهن عـالمهن الآخر.

أما هما، يحلقان مع الضحكات. يقول لنفسه: يضحك عليها، وتنصب عليه. قد يمال خياله وجـه امـرأة أخـرى، وربما تتركه عند آخر الطريق لتسلم نفسها لرجـل سـواه، يستعرضان حبهما في الشارع. لو كان ما بينهما حبا حقيقيا، لأخفياه عن أعين الآخرين، يتوقف في مواجهة نفسه " قصر ذيل يا أزعر " أصبح شغله الشاغل. يتابعهما كل يوم. يحاول أن يخترق الجدران ليرى ما يحدث، في شقتهما المقابلة لشقته لا يفصله عنها سوى الطريق الذي يكره اتسـاعه المهـول،

اتساع بالعرض. لديه منظار مكبر ومقرب من أيـام خدمـة الميدان. يحتفظ به كتذكار عزيز على قلبه. مـع قليـل مـن الرمال، وجزء من دانة مِدفع.

أخرج المنظار من مكانه. نفض عنه التـراب وبـدأ استخدامه. إنها المرة الأولى التي ينظر فيه فلا يرى الميدان. آخر ما رآه من خلاله كان الأعادي. نادرا ما يظهران فـي الشُرفة المغلقة دائما، يغطيها التراب المتـراكم وفـي أحـد أركانها يعشش العنكبوت. فتاة من بنات هذه الأيام. النظافـة ليست من اهتماماتها تستعرض مفاتنها في الشوارع، تعرض خبايا جمالها على كلّ الرجال، ولا يبقى لزوجها فـي عـشّ الزوجية سوى إهمالها.

تَعب من الوقوف. وأرهق عينيه التحـديقُ. أعطـى نفسه راحة لبعض الوقت، وعندما عاود نوبتجيـة المراقبـة رأى غسيلاً منشورا في الشرفة ارتعش كيانه من الأفق إلـى الأفق. لم ير سوى ملابسها الداخلية. ملأت الفضـاء أمـام عينيه. شعر أنه يتحسسها بيديه ويشمها بأنفه ويتملاها عـن قُرب. ملمس ناعم. رائحة امرأة، اكتشف خـلال التحـديق

البطيء من وراء المنظار أن ملابسها المنشورة أكثـر مـن ملابسه. بنت أنانية تعطي نفسها أولوية. حتى في الغسيل.

هكذا هن النساء، لا يجدن سوى الأخذ، ويتهربن من العطاء، تقول لك دائما هات وهات، من لحظـات التعـارف الأولى وحتى الفراق أو الممات. وإن طلبت منها ـ حتـى ولو نظرة ـ تمنّعت وساومت وقدمت كشوفًا بطلباتها.

حمدا لله أنه قضى زهرة شـبابه فـي المعسـكرات النائية. لا نسوان ولا يحزنون نجاه الله من مخالبهن الناعمة. هل يستمر ويقول إنه ليس بنادم؟ يكذب علـى مـن عنـدما يحاول أن يقول ذلك؟ كيف يقول هذه الكلمات. بعد أن كلبشت البنت في قلبه؟ واحتلت خياله. لو أنه كان يتعامل مع مكوجي وبائع حليب وزبال لامتدت خيوط الحكاوي، وعرف كل مـا يريد معرفته.

يحاول أن يرسم خريطة لشقتهما من بعيد، ما أكثـر الخرائط التي رسمها لمواقع الأعداء. وماذا كانت النتيجـة؟ عاد الأعداء إلى أرض الوطن. تسللوا إلى حرمته المقدسـة، بعد ورقة وقعها معهم المجنون. حارب مرتزقتهم. تعـرض لنيران، مدافعهم. واخترقت طائراتهم حاجز الصـوت فـي

الفضاء فوق رأسه. تركت نيران بنادقهم أثرها على جسده. وها هم يحاصرون وحدته. يقتحمون حتى غرفة نومه. تطل وشوشهم الكالحة على سريره المهجور من شاشة التليفزيون، تنسال العبرية من الراديو. وتندلق وتسح من أركان شقته كلها.

خانه ربيب حكمت فهمي، صاحب مغامرات العوامة ومصْلِح أجهزة الإرسال والاستقبال لجواسيس الألمان، بطل الحرب ابتسم لحرس شرف العدا في مطار بن جوريون في تل أبيب. من غرفة العمليات إلى مائدة المفاوضات يا قلبي لا تحزن. لم يكن يعرف أنه سيعود من الميدان إلى المستشفى إلى مركز التأهيل، ويخرج منه ليجد أن نار الحرب أصبحت نارا في الأسعار. وأن خيام المقاتلين أصبحت تباع في المزادات. بعد أن تحولت - في منتصف الطريق - إلى خيام للمفاوضات. بطل الحرب أصبح في غمضة عين بطلاً للسلام، أعداء الأمس أصبحوا حلفاء اليوم. تحولوا بقدرة قادر إلى أصدقاء ماذا جرى؟ إلى أين يقودنا هذا الجنون؟ لا أحد يعرف، ولا أحد يريد أن يعرف.

٣ ـ بوم الكبرى

يمشي الخريف في ردهات المعسكر، تدوس قـدماه على سجادة من ورق الشجر الأصفر. يسمع صوت الأوراق، وهي تتكسر تحت قدميه، ينظر وراءه لكي يرى آثار قدميه، ويشاهد عودة الورق إلى ما كان عليه. يحاول أن يتتبع آثار خطواته. ولكن تتوه منه التفاصيل الصغيرة.

في موعدها جاءت الغسالة، أثار حضـورها خيالـه المحموم، دهشت من بشاشة ترحيبه بها، وابتسامته الطارئـة التي لم يكن لها وجود من قبل، تناثر رذاذ التسـاؤلات مـن فمه. كان متعبا من الانفعال، ولكن ردها جاء مخيبا لآماله: " الكدب خيبة " من اليوم وحتى موعد الجمعة القادمة ستطّقّس في الأمر. وتدعبس في الحكاية. وتعرف له الأصل والفصل. من طقطاق لسلامو عليكو. خبط جبهته بيمناه، إنه لا يسـألها عن أخبارهما ولكن من هما. قالت إنهما منذ أن سـكنا فـي المرح في حالهما. يدخلان البيت كأنه زنزانة في سـجن، لا يخرجان منه إلا في صباح اليوم التالي، لا يحمـلان معهمـا عند العودة إلى البيت خبزا أو خضارا أو فاكهة.

يعودان وقت الظهر، عرقهما مرقهما، فـرك يديـه بعنف " مفهوم " يأكل منها وتأكل منه، سأل الغسـالة عـن وصف شقتهما. قالت إنها لم تدخلها من قبل. قال في نفسـه. ربما تصورت أنه يخطط لسرقة الشقة. فلتتصور مـا يحلـو لها. إلى متى يهتم بما قد يقوله عنه الآخرون؟ عرق وعمل. وشغلته صورته التي ترسم عنه في مخايل الآخرين، وها هو مصيره قبل الأخير شقة مثل الخندق، يدرك هذا جيدا عنـدما ينظر إلى عمارات هذا الزمان العالية. كلما هبطـت قامتـه. ارتفعت المباني وفوقها جميعـا يرفـرف علـم الأعـادي. الخازوق الذي يشعر أنه يعد لكي يصلبوه عليه في النهايـة. نهاية النهايات.

الخندق محطته الميدانية الأخيرة. والخندق شقة الأمر الواقع، خندق بعد أن ولى زمن الخنادق، ولن يعود ـ علـى الأقل ـ في جيله، جسرته تعود إلى أنه ليس له أبناء حتـى يشموا من بعد رائحة عرق الخنادق. وروائح بارود البنـادق ربما يعيش تلك الأيام أبناء الآخرين، وها هم يتسابقون فـي إنجاب أكبر عددٍ من هؤلاء الأبناء.

ها هو العريس، سبع الليل. والعـروس فاتنـة تلـك الأيام، يدخلان هذا السباق، سأل الغسالة إن كانت قد دخلـت أي شقة فوق أو تحت شقتهما في العمارة نفسها. ما زال ذكاء القائد القديم متوهجا تحت رماد الملل والتكرار.

قالت إن العمارات والشقق في الحي كله واحدة. بناها الجيش للضباط. كيف فاته هذا؟ ولكن الولد ليس ضابطًا. قد تكون باعها ضابط من الباطن. يتاجرون حتى فـي الهـواء. ثلاث غرف ودورة مياه ومطبخ وشـرفة أماميـة وأخـرى خلفية.

سألها عن أي الغرف يسـتخدمانها للنـوم؟ وأيهـا صالون للضيوف؟ وأيها المائدة؟ حلفت لـه بـرأس سـيدنا الحسين والست الطاهرة أنهـا لا تعـرف. قـرر أن يتـابع الأضواء الليلية في شقتهما، ذكره ذلك بعمليات الاسـتطلاع التي كان يرصد بها معسكرات الأعداء، لم يكن يرى سـوى الأضواء المنبعثة من معسكراتهم، يعد النجوم ويبحث عن أي ضوء فيتحرك في الأفق، لكي يخطط لجنوده، يحسب الوقت. منذ آخر ضوء في النهار ونـزول أول قطـرات الظـلام. ولحظة أول ضوء في الشقة. إنه النور الأبيض الصافي مثل

الشهد. الصالون مضاء. وهذا معناه وجود ضـيوف وسـهر ودردشة وحكايات. النور الأصفر.

يتناولان طعامهما في غرفة المعيشـة. التليفزيـون يعمل، يمران على كل القنوات، يفتح تليفزيونه لكي يشاهد ما يشاهدانه في الوقت نفسه، يحتار أي القنـوات تقـع تحـتْ بصريهما، ربما يستمعان إلى الراديو، تتعب أصـابعه مـن العبث بالمحطات. يشاهد التليفزيون بعينه ويستمع إلى الراديو بأذنيه. في اللحظة نفسها، صورة من أمامه. وكلمة على طبلة أذنه اليمنى. لعبة مسلية. يستمع إلى أجزاء من أغان يـرى نتفًا من نشرة الأخبار. تصله جمل من تحليلات سياسية.

" أُفّ " يغلقهما، التليفزيون والراديو معا. لابد أنهـا تزغّطه، تمسك البيضة المسلوقة تقربها مـن فمـه، يتمـانع تبلّعها له. يتصنع النطع أن البيضة وقفت فـي زوره، حتـى تكور يسراها وتضربه على ظهره. ما إن تلامس يسراها لحم ظهره، حتى تتحول الضربة إلى تحسيس عليـه، ثـم تـأتي التنهدات، وتتعطل لغة الكلام، يتركان منضدة الطعـام إلـى السرير مباشرة.

يتخيل أضواء النهدين في لياليهما الجميلة، وإن كان هذا الجمال يدخله إلى جحيم لا يعرف كيف ولا متى يخـرج منه؟ يضاء النور الأحمر القاني. آه. ضوء غرفة النوم. هذا الضوء كان يعني في أيامه الماضية علامة الخطر. يعنـي: قف. لكن إضاءته في الشقة المقابلة تقول للتو: استعد.

سأل الغسالة، من يغسل لهما؟ أردف تساؤله بسـؤال أكثر تحديدا: هل تغسل لهما؟ ردت عليه: " كان زمان وجبر " الغسالات الصاج هجمت على البر. إن طلبا منها أي عمل، سيكون الكنس والتنظيف، وهذا عمل لا تقدر عليـه بعـد أن هدتها الأيام وضعضعتها الليالي، وحتى إن عملت عنـدهما، لن يدفعا لها سوى الملاليم وموظف وموظفة. ماذا عنـدهما غير راتب كل منهما. أبناء أيام القحط وزمن الجفاف.

طلب منها أن تتشمشم أخبارهما من بعيد. هل يتصور أنها الكلب هول الذي يعمل مع البوليس؟ لو كان للعمارة التي يسكن العاشقان فيها بواب، لكان الأمر أسهل. الرجال أقْـدر من النساء في هذه الأمور.

٤ ـ يوم شتوية

الدفء في المعسكرات يبدو مثـل المعجـزة. سـد ثقوف الخيام، يمكن الإنسان من قضـاء جـزء مـن الليـل الطويل، دون أن يتجمد من البرد.

التعليمات تقضـي بعـدم إشـعال أي نيـران فـي المعسكرات، البدلة الشتوية تمثل قمة زهوه العسكري. قميص ورابطة عنق وشدة، بدلة تلف الجسم وتعطيه ملامحه.

يهفهف شعرها في هواء الشتاء القاسي السريع. يرى في الهواء الطائر صورة أعلام الوطن التي كانـت خفاقـة، ويتوه ـ في ذلك الزمان العذب الذي أصبح بعيدا بين بيارق الفرق واللواءات.

راح الخريف الناعم وخرج من وسنه الذي لا ينتهي، وجاء الشتاء حيث يتدلى من نوم إلى نوم، لا يستيقظ إلا من تعب الرقاد، ليعود إلى تعب محاولة استئناف النـوم. يغيـر رقدته ويحاول النوم من جديد.

رآهما، تاهت تضاريس جسدها الغض تحت أكـوام الملابس، وإن كان صدرها لا يزال قادرا على رفع الملابس بكل قوته. يبدو كهدف تعليم فوق تبة ضرب نار.

آه من الزمان الذي كان يحـدد فيـه الهـدف قبـل الضرب. أما فخذاها وما بينهما فإنهما يذكران بهدف ضرب النار الذي كان يقود الجنود إليه في التدريب العملـي علـى الرماية. وبطل الحرب غدا بطلاً للسـلام. وسـبحان مغيـر الأحوال ودوام الحال من المحال.

يضرب كفاً بكف. يشاهد البخار الخارج من فمهـا، يرد عليه بخار أبيض خارج من فمه، مثل البخار الخارج من بزبوز براد الشاي الذي يغلي ومن الكنكة عندما يسلق البيض فيها كل صباح. حيث إفطاره المكـرر والمعـاد والـذي لا يتغير. يرى البخار من بعيد. ويحاول معرفة الكلمات التـي تقال. لا عمل لهما سوى الاحتكاك، على وجهها شريط مـن شمس عليلة باهتة، لابد أن البخار الخارج من فمهـا يحمـل معه رائحة بقايا الطعام حول أسنانها، بعد قليل يدير كل واحد منهما وجهه بعيدا عن الآخر، ويمد يده، يكبس بهما على أنفه حتى لا يشم الرائحة المتداخلة مع أحرف الكلمات.

النساء هن دفء أسرة الشتاء، وهن فراشـه، هكـذا يقول. غير أن القول لا يكفي، في السرير لابد أن يتصـرف كما لو كان معجونًا بماء العفاريت، جسد المرأة هو اللحـاف والبطانية، وإن كانت لابد أن تستنزفه من كثرة نومها معـه، تمتص ماء الحياة من نخاعه وهو سيطبع على صفحة خياله تضاريس وملامح جسدها.

لن يأتي الشتاء القادم وهما معا، سـتتركه بعـد أن يكون قد تحول على كوم من العظام. أما هـو، رب ضـارة نافعة. لا تنظر إليه امرأة قط منذ أن بدأ يزك فـي سـيره، ويصبح لخطواته صوت واضح، ينتظر اللحظة التي يسـتقر فيها التعب في نخاعهما معا. جيل خرع. يفرط فـي الأكـل والنوم والثرثرة والجماع. عمره فركة كعب قصيرة الأمد.

يهاجر من دمه إلى دمه. قميص الدم يغطي جراحه، يخلعه، يلفه حول نخلة الله التي تركها في الوادي البعيد دون حماية. أصبحت هدفًا، يتدرب عليه جنود العدا، يتعلمون فيه التصويب، وهو في الليالي الطويلة ليس محتاجا لهدف لكـي يصوب عليه. قلمه يعرف الطريق إلى دواية الحبـر التـي

يغمسه فيها، كما يعرف إصبعه الزناد. والزناد يدرك مكـان الطلقة.

هل يمكن وضع قدر على المـاء ثـم لا يغلـي؟ إن السؤال هو: هل يمكن وضع فأر فوق فأرة دون أن يصـبحا ثلاثة في غمضة عين؟ فما بالك بهذه الفاتنة مع هـذا البغـل طوال الليل؟ في هذه الحالة، لابد مما ليس منه بـد. تصـبح الشقة جحيمه الخاص، تمتلئ بالرعشات والقبلات والنهنهات، أما هو فلا يملك سوى الحلم بشواطئ البحار البعيدة.

تجود الأرض الربيعية بمكنون سرها يخرج رحمهـا ما فيه بعد أن يشرب مـن ميـاه الأمطـار، يجلـس فـي انتظارهما، وهو يسمع زقزقة العصافير ويـرى اخضـرار الأشجار. رآها تستند عليه. ألم يملأ بعد وصـال الشـوارع وحب السكك؟

عجيب هذا الولد، وغريبةٌ هذه البنت، حياتهما معـا نهر من التواصل والعناق والحب. اقترب من شرفته فاكتشف أنها تجر قدميها. هل هي مريضة؟ ليس مـن المعقـول أن تتحمل هذا العجل فوقها كل ليلة ولا يعرف المرض طريقـه

إليها. لولا قدرتها على التحمل لانفجرت من زمان. ولكنهـا نخت وبركت وظهرت عليها العال.

أحضر نظارة الميدان بسرعة لعله يدقق في الأمـر ويرى الهدف عن قرب ويكتشف العلة ويتوصل إلى الدواء، يشعر بشفقة عليها ولهفة لإنقاذها، دقق النظر فـي وجههـا، أصفر باهت مثل صفرة الموتى، والشهداء الذين حملهم على كتفيه في الميدان، أخلى جثثهم من الصفوف الأماميـة إلـى أمكنة أمينة. شفتاها جافتـان، وإن جفافهمـا غيـر جفـاف الصحاري البعيدة والخنادق القريبة، عروق يديها تبدو نافرة. والدم الباهت اللون يتسكع فيهما.

ياه، وقعت الفأس في الرأس، حدث مـا لـيس مـن حدوثه بد الفاتنة حامل، كيف غاب عنه أن يتوقع هذا، مـن الطبيعي أن يثمر ما يجري في السرير ويكملانه في الشوارع بطنًا منتفخًا. زرع هذا الشاب زرعته في رحمهـا. ويمشـي بجوارها مختلاً مثل كبار القادة، يقول كالطاووس: هذا أنـا يوشك أن يشير على بطنها ويصيح: هـذه نتـائج رجـولتي وفتوتي واضحة للعيان. رجال أنانيون ينط كل واحد مـنهم ويجري. وعليها وحدها أن تتحمل الباقي كله. تتعب من الآن

وحتى الوضع. وضع البكر متعب، جنين في بطنها يمـتص منها كل ماء الحياة. وهو لا يستطيع أن يتصرف. هل هـذا معقول؟!

يرتبط الربيع في ذهنه بضرب العين. وهـو وقـت زراعة الزهور والأشجار، يبحث عن الجنود الذين جاءوا من الأرياف لكن يتحدث معهم في أمور زراعة الفُـلّ والـورد البلدي والعنب والليمون، ثم يمـنحهم الأجـازات بشـجاعة وسخاء لكي يسافرون إلى قراهم. ويعودان وهـم يحملـون الأفرع والبذور. وهكذا يتحول مدخل المعسكر إلـى جنـة. يباهي بها وسط رمال الصحاري اللانهائية، التـي تزحـف ببطء لكي تبتلع حلمه الأخضر.

يقضي أيامه لا عمل له سوى الزرع وإحضار الماء، يزرع الأرض، يحضر له العساكر الفلاحون البـذور مـن الريف. أما هو فبذوره في ظهره. لأن أرضه تخلّـت عنـه. انسحب وتركها. دنسها العدا. أرضه رحمه. رحـم كبيـر لا يفارق خياله لحظة واحدة، معه في الليل ومعه في النهار.

شتائي هو، لا يحب الصيف، تزهق روحه منه، يعد أيامه حتى ينتهي وإن كان الصيف يهجم سريعا بعـد ربيـع

جميل. فهو يمضي ببطء بعد أن يحتل الهواء والأرض. وكل ما يحيط بالإنسان، شمس في النهار وأرض تفـح حرارتهـا المختزنة طول الليل، كانت خيمته في البراح. ولكن الشـقة تبدو مثل الخندق الآن. يكبس على أنفاسه عبـاد الله، بـدون حصر ولا عدد، يشعر أنهم يجرون وينامون ويجلسون فوق صدره.

آه من الصيف، يجلس هو بالفانلة واللبـاس، وهـي بقميص نوم على اللحم، حتى بدون الكلـوت. تلـم شـعرها السايح في الهواء. كل طير يرجع لعشه وجميع الغربان تعود إلى أوكارها بعد اللف والدوران. وهما أيضا يعذبانه بالعودة اليومية. إلى بيت الشجن والقـبلات وهمسـات العصـاري واحتكاك الجسدين لحظة انتصاف الليل.

هو وهي حسن ونعيمة. الشاطر حسن وست الحسن والجمال، التي كان يسمع حكاياتها من فم جدته الأهتم الـذي بلا أسنان. الحكايات تُشكل يدا تلتف حول رقبته. تمنع حتـى الهواء من الوصول إلى رئتيه. تفتح البـاب واسـعا علـى الممرات المتعرجة المدفونة في حبة القلب المثقلـة بظـلال

النساء وكراسي السلطان وحقائب الأموال. مع أنـه حـرص طوال عمره أن يكون بعيدا عن هذا كله.

يجلس، يحاول أن يتذكر آخر مرة سار فيها في هـذا الشارع أو ذاك. أو دار في الميدان الفلاني يعصر ذِهنه، متى شاهد بحر النيل لآخر مرة؟

٥ ـ يوم ساخنة

صيفُ الغبار والسأم بالنهار، والملـل طـول الليـل والسباحة في العرق بين الليل والنهار. صيف وعرق، فـي طريق العودة لن يشما سوى رائحة عرقهما يبتعد كل منهمـا عن الآخر. يهربان من هذه الرائحة. وفي الصباح لن يتمسح كل منهما في الآخر لكي يشمه.

صيف المعسكرات جميل. اللباس الصيفي يهفهف بعد التخلص من الزي الشتوي. في الليـل يحلـو السـمر فـي المعسكرات. يصبح الصيف حصيرة واسعة. كل مكان سرير نوم. والتمشي والتسكع ساعة الأصيل حول المعسـكر كـان نزهة نادرة. التمشي والتسكع؟؟ إنه لا يجرؤ علـى مجـرد

التفكير في ذلك الآن. صيف البيوت لا يطاق. والصيف فـي الشوارع ضجيج متعب.

٦ ـ وفي الختام كانت: بوم

سيادة اللواء، سيادة القائد. الآن معه الببغـاء دائمـا، والغسالة تأتي سبعة أيام وتمضي. تثرثر وتتكلم وهو يسـتمع وفي أقل الحالات يستفهم. من الآن سيكون هناك حوار معها. يدور حولهما. العروس والعريس. قصتهما من لحظـة بـدء الحكاية وحتى النهاية. وهل يمكـن أن تنتهـي مثـل هـذه القصص العاطفية العظيمة. دعك من الأوهام. لكل أول آخر. وما دامت هناك بداية، لا مفر من أن تكون هنـاك نهايـة. والببغاء اشتراه بعد أن جاءت أيـام الوحـدة يلقـي عليـه التعليمات التي لا يعرف على من يلقيها. صفا انتباه. تحيـة العلم تحيا الجمهورية العربية المتحدة، تحيا جمهورية مصـر العربية. كان المقاتلون يرددون كل هـذا وراءه. الآن يقـوم الببغاء بالمطلوب. وإن كانت الأحرف علـى لسـانه تبـدو غريبة.

كان يتحدث ويـردد الببغـاء وراءه. كلمـات عـن الحرب، التقدم والضرب تحرير التراب، الأرض والعرض، وعندما بدأ المجنون رحلته نحو المجهول. وقف أمام قفـص الببغاء وسأله:

- ملك أم كتابة؟

لأول مرة لا يردد الببغاء ما يقوله، ولكن يرد علـى سؤاله:

- ملك.

سأل نفسه: دكر أم نتاية؟ هجوم أم انسحاب؟ سماء أم صحراء أم أرض زراعية؟

الحديثُ مع الببغاء أفضل ألف مرة من الكـلام مـع نفسه، الذي هو المقدمة الطبيعية للجنون.

سأل الببغاء:

- تقدم أم تقهقر؟

رد عليه:

- الانسحاب النهائي.

تساءل عن أي الرايات سترفع في الأيام القادمة.

سأله ببغاؤه بدلاً من الرد عليه:

ـ من يرفع الراية البيضاء أولا؟!

قال لنفسه، يبدو أن هذا هو السؤال الذي علـى كـل شخص أن يجيب عنه بنفسه وبطريقته الخاصة.

يصل الضيقُ إلى حبة القلب. يلفها من كـل جانـب حاول أن يغير الموضوع.

قال:

ـ حب.

ولكن الببغاء صمت.

قال:

ـ شجار.

لم يقل الببغاء شيئًا. نخسه بيده:

ـ خصام.

ضربه هذه المرة، ولكن الببغاء تحمـل الضـربات واعتصم بالصمت قال:

ـ فراق.

وعندما لم يرد عليه هذه المرة أيضا. فك باب قفص الببغاء رماه على الأرض. صعب عليه، حاول أن يرفعه من على الأرض. ويعيده إلى مكانه ولكنه عجز عن هذا، كـان

عزاؤه الوحيد. أنهم فعلوا معه أبشع مما جرى للبغاء علـى الأقل هو لم يقصر في عمله ولم يمتنع عن القيام به. ولكـن البغاء أضرب عن العمل فجأة. عميل. خانه لصالح الأعداء الذين يسكنون الشقة المقابلة أما هو فلم تعرف الخيانة طريقها إليه أبدا. الوطن هو الذي يرفض ولاءه الآن.

ليل ولا نوم. إن أغمض عينيه لابد أن تأتيـه فـي المنام شديدة الوضوح كان يتخيل في يقظته أنه ستجري وأنه لن يتمكن من اللحاق بها أبدا يحاول الجري فيكتشف أنه بـلا قدمين. وإن اقترب منها وحاول الإمساك بها لن تكـون لـه يدان.

تمنى ألا تأتي له في المنام أبدا. يكفيه عجز الصحو. هو فعلاً في الحقيقة والواقع له قدم واحدة، لا يعـرف أيـن الثانية فكيف يجري؟ كلما قرر البحث عن القدم الثانية شـغله أمر ما. ما من ليلة نام فيها إلا وهو ينـوي أن يـذهب فـي الصباح للباحث عنها. وما من صباح يهل علـى الـدنيا، إلا وتكون عملية البحث المؤجلة هي شغله الشاغل. ولكنه فـي لحظة البدء يطل عليه ما يعطله. وهكذا ينزاح عن قلبه عبء كبير عندما يؤجل الأمر كله إلى الغد وهكذا.

جاءته في الحلم، فأدرك أن العذاب وراءه وأمامه.احترقت المنطقة عن آخرها. البيوت والشوارع والنسا، كتلة من اللهب. لم يبق على الأرض إلا هما معا، تمكن من إنقاذها في الساعة الخامسة والعشرين، مثلما كانت حواء وآدم عند بدء الخليقة، ولكنه لن يخرج من الجنة. ما جرى لن يتكرر معه. لا تفاحة ولا يحزنون.

كان في سباق مع النار. وصل إليها قبل ألسنة اللهب. قرأ في عينيها الإعجاب والانبهار والحب. يا نار كوني بردا وسلاما علينا، إنهما عند آخر مكان من النار وأقرب نقطة على الماء.

قالت له: وهبتك عمري الذي انتزعته من بين ألسنة اللهب. إنه لك دون الناس جميعا تختلط نار الميدان بنيران الحلم، ولكن حبيبة الفؤاد كانت على يديه.

لا يستطيع الهروب من وجع الذكرى. أسراب الحمام المسافر، فوق الأرض التي أجبر على تركها وراءه، استباحتها أقدام الغرباء، يمسك بورقة يرميها في الجو. ينتظر حتى يرى إن كانت هناك رياح أم لا. وإلى أين تتجه؟ تتوه نظراته في سماء الله العالية. طير وحيد في السماء لا يعرف

إلى أين يطير؟ يخيل إليه أن الطير له جناح وحيد، يتسـاءل: كيف يكون الطير وحيدا وبجناح وحيد في السماء الواسعة.. كيف؟! لم لا يأتي هذا الطائر ويبحثان معا. هو عن قدمـه. الطائر عن جناحه؟!

نهارات المعسكرات. يتمشى. يدوس على ظلـه، لا يفعل سوى رؤية الظلال في حركتها اليومية البطيئة. أما سبع الليل. فلا يرى سوى ظلال النهدين القافزين في الهواء.

الأرض التي أعادها لنا العدا، كيف عرفت أقـدامهم الطريق أرض لم نحررها نحن؟ كيف خفقت قلـوبهم لهـا؟؟ كيف ترى أعينهم ذرات الرمال فيها؟ وتصافح هدوء سمائها. ربما كانت قدمه في هذه الأرض، ولكن حرام أن يسترد قدمه من أرض لم تحرر بالـدماء. وإنمـا جـاءت عبـر مائـدة المفاوضات.

لم يبق له سوى الجلوس والتحديق. أنشط مـا فيـه ذاكرة الضواري والأفيال، يسترجع ما فـات ويعـيش مـرة أخرى ما جرى، يشم حطب عمره الـذي قدمـه للنيـران، ويتحسس رماد أيامه الذي يحيط به من كل جانـب يعـيش أحلام العودة، والبروجي الذي يعزف نوبة الرجوع، وعلـم

الوطن الذي أنزله ذات صباح قبل الانسحاب، هبـت نسـمة هواء واحدة، فخفق قلبه، لم يعد أمامه سوى الصبر والبحـث عن رزقه في الملكوت النهائي.

يجلس، يزفر، يشعر بضيق لا حدود له. لم يبق منه سوى صوته. هذا كل ما بقى له.

يتساءل: هل هذا معقول؟

ينظر إلى الشقة المقابلة ويتساءل:

ـ متى يتسلل التعب على عظامهما. متـى وأيـن؟! ينظر إلى القدم الصناعية المركونة أمامه.

ويردف السؤال من جديد:

ـ متى يعثر على القدم الحقيقية، كيف ومتى وأين؟!

لا آخر الأرض فيها إجابة ولا آخر الأيـام تشـفي غليله.

معلق على مشنقة السؤال

يتأرجح على عذاب تساؤلاته

لا الموت يأتي.

ولا الحياة أصبحت ممكنة.

أغفى الفارس القديم.

كئيبا

ثم انتهى.

هذا ما قد يقولونه بعدي.

كانت آخر الكلمات التي نطق بها. ولم يرددها الببغاء لأنه كان قد رحل بعيدا.. في الأفق الذي لا أول له ولا آخر.

مجنون

قمت من مقعدي في القطار وعزمتُ عليها كي تجلس مكاني. كان الزحام فظيعا، وانحشـار الخلـق يخلـو مـن الإنسانية. وهل في التزاحم إنسانية أصلاً؟ الإنسانية الوحيـدة هي أن يخلو الإنسان إلى نفسه، بعيدا عن الآخرين وتطفلهـم عليه.

فوجئت بنظرات الناس غير المصدقة البعض قالـت نظراته. إنني مجنون وأبله. وهي جلست في المكـان الـذي خلا بوقوفي. ومر بعض الوقت. الذي طال أكثر من الـلازم في تصوري. قبل أن تنظر إلي قائلة " عاجزة عن الشـكر " تمتمت قبل أن أقول لها " دا أقل من الواجب يا هانم ". وهي ضحكت عاليا هانم؟ " جبر الخواطر على الله ".

كنا على مشارف مصر أم الدنيا. وكان قطار الصعيد شايلا ومحملاً فوق سقفه وفي نوافذه وعلى أبـواب عرباتـه، وكل هؤلاء يمنعون حتى الهواء عن الذين استكنوا في جوفه، أناس من كل لون وجنس وصنف، يتوف القطار فيقذف بهم، وكأنه يتجشأ بعد أكلة دسمة، يسلمهم للأرصفة، ثم يبدأ فـي

الانسحاب نحو المخزن. قبل أن يفكروا في العودة إليه مـن جديد.

الآن فقط، فاجأني جمالها الفريـد، والضـوء القلـق المنبعث من عينيها. أشحت بـوجهي فـورا مـؤامرة مـن الخصوم، هم الذين زرعوها في طريقي حتى تصرفني عـن الهدف العظيم الذي جئت إلى هنا من أجله هي شيء عذب لم ألتق به من قبل، ولكن البر مليء بمثيلاتها، أما الغرض فإن لم يتحقق في هذا اليوم، لن أجرؤ على التفكير فيه سوى بعد عام من اليوم.

يداها صغيرتان، وأصابعها طويلة. ولرقة ونعومـة جسمها بريق أراه واضحا وفي وجهها ضوء خفيف بدا لـي أنه ينساب من أعماقها.

وقفت في مواجهتها في القطار. كانت أمامي، وكنـا كجنديين في الميدان يخفي كل منهما سـلاحه وراء ظهـره. ذكرتني بالسلاح الذي سأنفذ به مهمتي. لم يكن لـه وجـود معي. توكلت على الله وكفى. قلت عند بداية الرحلـة، نبـل الهدف يكفي، قالوا لي إن الله معك. ومن معه الله لا يحتـاج

إلى سلاح معه، إيماني سلاحي. كان مـن الصـعب علـي الحضور ومعي سلاحي.

في الحلم الذي رأيته ليلة الأمس. ما إن كنـت فـي مواجهة عدوي وعدو بلادي وخصم ديني رغم لقب المؤمن الذي يسبق اسمه. حتى وجدت السلاح في يدي. لا أعـرف من أين أتى؟ ولكنه كان بيدي.

الشهوات عارضة والرغبات زائلة. ولا يبقى سـوى ما هو منقوش في حبة القلب، لن يعود سوى برأس المجنون، الطريق إلى المكان الذي أخذوا أمي رهينة فيه يبدأ من هنـا، ومن هذا البندر الكبير سأعود وهي معي.

سألتها ماذا تعمل؟ فقالت إنها وصـيفة سـيدة البـر الأولى. توقفت الضحكة في حلقي. لم أصدق. لأول وهلـة، ولكني سألت نفسي: ولم لا؟ يضع سره في أضعف خلقه، إن كان هذا حقيقيا سأعتبره أحسن فأل وقف في طريقـي هـذا اليوم.

تقترب مني فيزداد خطرها علي، لأفرغ من مهمتـي أولاً، لكن هل هناك مانع من بعض الترويح عن النفس قبـل

أن يأكلها التعب من الداخل؟ الآن فتنة وجمال. وبعد ساعات يكون الأمر الذي تهون الدنيا من أجله.

ثمة جاذبية تنبعث منها، لها فعل السحر، واحدة مـن بنات البندر. بنت إبليس هي: سواء رأيتها بعيني الصـعيدي. أو نظرت إليها من وراء ظلال ذقن رجل دين. فلا أملك في كلتا الحالتين، سوى هذا الوصف " ابنة إبليس ".

الصدق، الصدق، أن أقول. إنني اشتقت إليها. هفـت روحي نحوها، غرم كل اعتراضات ضميري علـى شـكلها الصارخ، وزينتها المتبرجة، وبهرجة الألوان فـي ملابسـها ولأنني إنسان خشن، لا أعرف كيف أرض الكلمات بجـواره بعضها حتى تعجب النساء، قررت أن ألم كلامي معهـا. أن أقلل ما أقوله لها ما أمكن. أستمع أكثر مما أقول.

في الليل حلمت أنني أقف على جثة الذي فعل بنا كل ما فعل، وبيدي سيف تقطر منه الدمار، هـل هـي إشـارة سماوية لي، أنني انتدبت لهذه المهمة. أن أقتله. مـا أضـخم الكلمات. أنني لم أفكر في ذبح فرخة في حياتي، فهل أقتـل الفرعون. قالوا في بلدتنا من قبل إن أضخم الأفعال، يقوم بها أبسط الرجال.

لم يكن لنا من نصير سواه. فمن الذي قلب السحر؟ على الساحر؟ يوم مجيئه هللنا، قلنا ها هو زماننا يهلّ علينا. سمعت الأمير يقول: مات الذي أكّلنا المش، وجاء من لا تفارق المسبحة يمناه، فأهلا به وسهلا. ولكن بعد سنوات، قال عنه إنه هو الذي علمنا الغش، عندما بدأت رحلتي هذه. لم أكن أعرف من الذي يقف وراء عتبة المجهول وماذا قد يفعل بنا عندما تؤول إليه الأمور.

كلمتني عن البلاط، والسكرتارية، ومخزن الهدايا، والهدايا أنواع، إلكترونية، ومن النسيج، ومنها ما يؤكل وما يشرب، وما يتم شمه، قلت إن البنت تريد أن تأكل بعقلي حلاوة، أنا الرجل وهي المرأة. ولابد أن أسبقها في أي ميدان مهما كان.

مباراةٌ في فتح الدراع، قلت لها إنني رأيت مخزن الهدايا هذا. بل وحصلت على تليفزيون ملون ١٧٣ بوصة. اتسعت عيناه من الدهشة وعدم التصديق. قلت: إنني كنت ضابطًا كنت أعمل في الحرس الخاص، فاجأتها بسؤال مباغت: هل كانت تُشاهد جولات المؤمن في التليفزيون؟ تلك الجولات التي كانت تتم على الهواء. وتعاد أكثر من مرة. في

اليوم الواحد كنت أنا الذي أقف على يمينه في كل مرة يخرج فيها من القصر. كنت معه. ولكن مشكلتي، أنني رأيت أكثـر مما ينبغي، وسمعت أكثر مما تتحمله أذنـاي. بـل أذنـا أي إنسان على الأرض.

- ومتى تركته؟!

ابنة حواء لن تتركنا نصل إلى بر الأمـان، وننجـز المهمة التي جئنا من أجلها. لا داعي لكل هذه الأسـئلة وإلا تركتها. مع أن وجودها معي يغطي المهمة ويسليني ويحميني من التوتر المهول الذي يقع كلمـا اقتـرب موعـد المهمـة المقدسة. ولحظة تنفيذها.

تركته عندما سمعته بعظمة أذني، وشاهدته بأم عيني. وهو يقول لأحد كبار الصحفيين " أنا غول. ولن يستطيع أحد أن يهاجمني لا من العرب ولا من الجرب ". خرجـت عـن حدود دوري وسألته: العرب ومفهومه ولكن من هم الجـرب سيدي؟!

قالها لي بحرارة: المصريون.

كان المؤمن يقول بعيدا عن التليفزيون، الـذي كـان سلاحه الأول والأخير إنه يحكم شعبا لا عمل له سوى الأكل

والجماع والتبرز. كل واحد له معدة مثقوبة. فمن أين يـدبر لهم ما يأكلونه؟

كان في الصباح الباكر. في القناطر الخيرية. يصحو من نومه، ويقف في الشرفة ويخاطب النيل.

كان يقول:

ـ صباح الخير يا نيل.

وكان يكمل قائلاً لنفسه:

ـ إن العظماء لابد أن يصبحوا على بعضهم.

كان لا يحب التصوير إلا وهو واقف أمام الأهرامات أو أبو الهول. كان يقول عند الأهرام أنا هرم مصر الرابـع. أما أمام أبو الهول فكان يردد، الفارق بيني وبين أبو الهـول القديم أنني ناطق وهو لم يعرف النطق أبدا ".

كان غضبه يصل إلى ذروته كلما سمع عن مشروع يتم تنفيذه. لكي يتم نطق أبو الهول، ويحكي، ويقول إن هدف المشروع الوحيد هو القضاء على صيتي الذي عـم الـبلاد كلها، وكان يهمس في آذان الأجانب عندما يصفو الحال بينه وبينهم: المشكلة أنني أحكم شعبا من الأقزام سألتني:

ـ نحن إذن من الأقزام.

أمسكت بيدها وقُلتْ:

ـ بعد قليل سنصير من العمالقة.

اقتربت من نهاية رحلتي. الإصبع على الزناد والقلب يدق. قلت لمن اعترض طريقنا: لقد حضرنا معا مـن آخـر مكان في البر، من أجل الفرجة، فهل تمنعنا؟ هل هذا معقول؟ كان الحارس في سن والدي. رق قلبه لحالنا مد يده. طبطب علينا. وقال: الدار أمان تفضلا.

وأنشدت في داخلي أبياتًا من الشعر العربي القديم عن الفرج بعد الشدة. واليسر بعد العسر. ولم يفـارق إصـبعي الزناد حتى كان ما كان.

للنهار بقيةٌ

تلاقى القطاران، النازل من الصعيد، والطـالع مـن بحري، في وقت واحد تقريبا، وهي مصادفة لا تتم إلا عندما يكون هناك تأخير أو ظروف طارئة.

استفرغا من داخلهما، عددا لا يحصى ولا يعد مـن خلق الله، من يرى المنظر لابد أن يتساءل: كيف كان ينحشر كل هؤلاء في قلب القطارين؟

جلاليب وبدل. عفاريت وقفـاطين. عمـم وبـرانيط وطواقي، والنساء من الحجاب إلى الشّفتشي، مرورا بكل ما يتصوره الإنسان من الملابس، كرنفال عجيـب. وإن كـان النازلون من قطار الصعيد أكثر خشونة وأقل ثـراء، حفـر الزمان على وجههم خطوطًا، في حـين أن الطـالعين مـن طراوة بحري أقل بؤسا.

ينصرف خلق الله كـل لحـال سـبيله. يصفصـف الرصيف على المتسكعين والشيالين والذين أكـل الانتظـار وجوههم. وهم يقفون هكذا لأنهم في انتظار القطار الذي يأتي ولا يأتي.

كان نازلاً من قطار الصعيد الجواني. وإن كنت أنـا آتية من بحري. ركنت جسمي لسور مـن الحديـد يفصـل رصيف الصعيد عن تل طوار الإسكندرية. كل الذين نزلـوا من القطارين يعرفون أهدافهم. إلا أنا وهو.

ربما كان يبحث عن شخص ينتظره. جائز أن يكون على موعد وصاحب الميعاد البندري المصراوي لم يحضـر إليه. التخمينات لا نهاية لها. يحدث أحيانًا أن تكـون لحظـة الوصول إلى مصر بداية الحيرة. وليست آخر المطاف، هكذا حال الصعايدة وأولاد الفلاحين، عندما يصلون إلـى البنـدر الكبير لأول مرة دائما.

وجهه غابةٌ من الشعر. الجلْباب أبيض. وفي القدمين بلْغة بيضاء سوقي. والرأس عار والشعر منفوش. وقد التفّ على شكل فتل من كثرة الإهمال والعرق.

هو الذي تحرك أولاً ولكن ليس باتجاهي.

اقترب من أقرب بائع له:

ـ السلام عليكم!

قالها بحماس وبلغة فُصحى مثل أبطـال التمثيليـات الدينية والتاريخية التي يعرضها التليفزيون. ولكن الرد كـان

فاترا. بصقة البائع في وجهه، والبائع انطفأ حماسـه عنـدما اكتشف أنه يسأل قبل أن يكون زبونًا، أي لن يشتري:

ـ وعليكم مثلما قلتم.

سأله:

ـ دلني يا أخي أين الطريق إلى مدينة ناصر؟

استمعت باهتمام. الرجل مثلي غريب عـن المدينـة الكبيرة ويبحث عن عنوان يعرفه. ليس مكتوبا فـي ورقـة معه. يقوله له من ذاكرته.

حاله أحسن من حالتي. فأنا لا أعرف عنوانًا أذهـب إليه. ما أكثر دهشة الغريب. عندما لا يكون معـه عنـوان يذهب إليه في بلاد مثل البر كله.

والبائع الذي سمع السؤال لم يرغب حتى فـي الـرد عليه. أشار لمكتب بعيد. كل الناس تسأله فالبائع مخه لـيس دفترا. وهو سريح على باب الله يقف هكذا. حتـى يحصـل على رزق أولاده.

تركه الغريب وهو يدمدم:

ـ أرض الله واسعة.

سار فتحركت وراءه. سرت بعد بمسافة، لم يكن لدي سبب واحد يدفعني لأن أقطره. ولكن هذا ما جـرى " ضـل راجل " قلتها لنفسي. حتى وإن هذا الرجل يتكلم بـالنحوي. والسبحة في يده تصل إلى الأرض. ووجهه لا يكاد يظهر من وراء الشعر الكثيف. فروة شعر رأسه المنفوش، تصل إلـى شعر دقنه الذي لم يقترب منه موس منذ سنوات. لدرجة أنني لم أتبين أن كان شكله مقبولاً أو منفرا وإن كان طاعنًا فـي السن أو شابا أو في منتصف العمر.

الذين نزلوا من قطارها، والذين خرجوا من جـوف قطاره ُأمم. يسدون عين الشمس. تصورت أن أمامهم ساعات وساعات حتى ينصرفوا من المحطة. ولكن الأرض انشـقت وبلعتهم في دقائق. قبل أن تفيق من دهشـتها وتخـرج مـن استغرابها.

التصقت نظراتها به حتى لا يتوه منها مثلما ضـاع كل الذين كانوا في القطار. طـوال الطريـق تعبـت مـن الاختيار. وها هي ليس أمامها سوى هـذا الشـيخ الـذي لا تعرف مدى نفوره من جنس النساء.

لو كانت في حياته امرأة. أم أو أخت أو زوجـة أو عشيقة ما تركته هكذا أبدا للمرآة لمسات لا تُخطئها العـين. تظهر واضحة على الرجل. مقطوع من شجرة، هذا هو وجه الشبه الوحيد بيني وبينه.

بدا لها يكلم نفسه، شاهدت شفتيه تتحركان. وتفتفـه تخرج من فمه، وزبد يحيط بشفتيه، مجنون أم به أُلطـف أو مخاوي؟ عندما شاهدت ـ من جديد ـ المسبحة فـي يـده. قالت إنه يسبح بعدد حباتها. لا يريد أن يضيع لحظة واحـدة من يومه. بعيدا عن العبادة سيكون مصيرها الطرد، وربمـا الفضيحة في قلب المحطة التي لم تر محطة في حجمها مـن قبل أبدا.

ستسأل هي أيضا عن مدينة ناصر. وأمرها إلى الله. وهل لديها مكان آخر تسـأل عنـه؟ علـى بـاب المحطـة الخارجي، وجد من يستمع إليه ويرد عليه. أشـار لمحطـة الأتوبيس الذي يصل إلى مدينة ناصر. ولم يفته أن يقول إن التاكسي موجود.

ـ لا شكرا.

لو كان مظهره غير ما شاهدته لقالت إنه إما بخيل أو حريص يده لا تطول أجرة التاكسي التي لا تعرف مقدارها. وما معها من أموال قليلة سينتهي قبل أن تغرب شمس هـذا اليوم ويأتي ليله.

اقتربت منه. توقفت فجأة واستدارت، فخبطت فيـه، مد يده وأبعدها واستعاذ بالله، كان يتلفت حوله دائما. كأنه إما مطارد أو مراقب أو يخشى من خطر ما.

ـ يا دي الندامة ما كانشي قصدي.

كان صوته عاليا وهو يرد عليها:

ـ وهل أنا الذي قصدت؟

وقفا في مواجهة بعضهما قليلاً من الوقـت. تسـلل الارتباك إليه بصورة مفاجئة. حسب حساب كل الأمور فـي رحلته إلا هذه. لديه استعداد لكل احتمال سوى واحـدة مـن بنات البندر. الذي حضر إليه من أجل مهمة محـددة. يعـود بعدها من حيث أتى.

شعر بضيق يقرأ الكتاب من عنوانه. ويعرف اليـوم من لحظاته الأولى. من الذي زرعها في طريقه حتى تحـول بينه وبين المهمة التي جاء من أجلها؟

ركّزت كلّ قواها في عينيها ونظرت إليـه، سـبلت رموش عينيها وسألته عن الطريق إلى مدينة ناصر التي لـم تكن تعرف سوى اسمها. قال لها إنه ذاهب إليها. وإن كان لا يعرف مكانها. دوغري وصريح ولا يلف ولا يـدور أولـى حسناته في الخطوة الأولى معه. ولكن ماذا عن سيئاته غيـر غابة الشعر حول وجهه. وانصرافه عن الدنيا والناس؟

قال لها: إنه سيفطر ثم يذهب إلـى مدينـة ناصـر. موعده هناك بعد صلاة الظهـر. والوقـت أمامـه طويـل. والمواصلات هنا سريعة وكثيرة. الحال أحسن ألف مرة من الوضع عندهم. رفع يده التي تتدلى منها المسبحة لكيس يشير إلى محطة الأتوبيس، الذي يقلُها إلى حيث تقصد. قالت إنهـا يمكنها انتظاره هنا حتى يفطر مع أنها لم تفطر هي الأخرى.

أضاءت المساحة المحدودة والصغيرة التي تبدو مـن وجهه، ابتسامة باهتة، كانت الأولى، منذ أن رأتْه. لـم يقـل شيئًا ولكنها حاولت أن تفتح حقيبة يدها. قالت إنهـا سـتدفع نصيبها في الإفطار. مد يده. منعها من ذلك:

ـ عيب يا حرمة.

تلامست يده مع يدها. فشـعرت بتحنـان غريـب. استراحت لملمس يده. وسعدت بكلامه، ونظرت في الأرض متصنعة الخجل. الذي كانت تشعر به عندما كانت عـذراء. قبل أن يحدث ما حدث ويجري ما جرى.

اشترى طعاما من أكثر من بائع ولفّه في ورقة أخذها من البائع الأخير، قال لها وهما يمشيان معا. إن المطاعم هنا غالية. وإن كان لا يعرف أسعارها بالضبط. فضلاً عن عدم النظافة. وكذلك فإن أهل هذا البلـد الكبيـر لا يعرفـون الله ويسرقون الكحل من العين.

تذكرت أن عينيها متعبتان مـن السـهاد والسـهر، وقالت إنها بعد الإفطار ستزين نفسها على مهلها وراحتهـا. كان يحدثها. ثم ينصرف عنها. يبدو أنـه يتحـدث لأنـاس مجهولين لا تراهم، أما هو فإنه يستمع إلى مـا يقولونـه، أو ربما يكلم نفسه، وإن كانت لم تتبين من الغمغمات ما يمكـن فهمه.

استطاعت أن تلملم حكايته المتناثرة من هلوساته، من الصعيد الجواني هو. جاءت كبسة على بيتهم. كانوا يبحثون عن شقيقه الأصغر.

الذي لم يكن موجودا هرب قبل حضورهم للقـبض عليه. لا يعرفون مكانه. لم يصدقوا. أخذوا أمه الكبيرة فـي السن رهينة عندهم حتى يسلم أخوه نفسه.

كل هذا كان من السهل أن تفهمه. الذي لـم يـدخل عقلها قوله. إنهم هم الذين أعطوه السلاح منذ سنوات وبسطوا عليه حمايتهم. فما الذي جعل حلفاء الأمس أعداء اليوم؟!

قال لها وعيناه تلمعان كما تلمع أعين المجانين وهـو يكز على أسنانه:

ـ لن يشفي غليلي سوى رأسه.

قال لنفسه:

ـ المغرور يسعى نحو حتفه. ويجري باتجاه منيتـه وسأسجد لله شكرا لو كانت على يدي.

قال للهواء حوله:

ـ سمعنا كلامه، وعاينا فعاله، فها لنا ما جرى.

قال:

ـ عقله يشهد عليه لا يشهد له.

لم تفهم من كان يقصد بالضبط. كل ما وصـل إلـى ضباب إدراكها. أنه يريد أن يقتل أحدا من الناس. ولكن مـن هو؟ ولماذا يريد أن يقتله؟ فقد ظل ذلك بعيدا عن فهمها.

قالت له:

ـ الصلح خير والتفاهم أحسن.

سهمت، سرحت. هل تحكي لـه حكايتهـا وتقـص قصتها؟ وإن فعلت هل تقول الحقيقة فيهرب من وجهها، ولا تراه بعد ذلك؟ أم تقول كلاما " كدب في كدب ". وإن كشـفها تقول إنها كانت تضحك. يبدو أنه سيأخذ كلامها على الجـد. لقد أخذ الدنيا مقاولة شقا.

وجهه لا يبتسم حتى للرغيف الساخن الخارج لتـوه من الفرن. ما أسهل الكذب وما أصعب الصدق.

في كل مرة تحكي حكاية، لا تعرف من أيـن تـأتي بها. ولكن المهم في كل مرة، هو العثور على خيط الحدوتـة الأول. الباقي يأتي من تلقاء نفسه. وبدون أي تعب أو عنـاء منها، فضلت الصمت. لماذا تتعـب نفسـها وتـرمح نحـو المشاكل.

قال لها، بعد أن أحضر كوبين من الشاي من نصبة قريبة من المحطة:

ـ والأخت بالجودة منين؟

أرض الله واسعة، لماذا يبدو مستعجلاً على الهم. الذي يملأ كل ركن من أركان نفسها.

وجدت الكلمة الأولى بسهولة:

ـ المنصورة.

ـ أجدع ناس.

غمزت بعينها:

ـ ونسوانها.

كورت أصابعها وقبلت أطرافها، تعبيرا عن الإعجاب الشديد.

ارتبك ولم يعلق.

قالت:

ـ أصل بذرتهم مخلّطة

بان الغضب على وجهه:

ـ جدودنا هم اللي قالوا كده، هو أنا كنت وياهم.

سهم وخاطب الفضاء حوله: " أعجبته نفسه فتكبـر " هذه المرة فقط اكتشفت أنها تجلس أمامه، فاعتذر لها، بـأن حاله ليست على ما يرام.

قال لها بعد فترة صمت:

- الغريب للغريب عزوة. نتعكز على بعض؟

نظرت له بعرفان بالجميل، لم تستطع أن تُخفيه عنه احتارت ماذا تقول؟

ولكنه هو الذي تكلم، قـال إن طريقـه خطـر، وإن المشي معه يؤدي إلى التهلكة، قد يصل الأمـر إلـى حبـل المشنقة. خبطت صدرها " الشر برة وبعيد ".

لابد أن يوضح لها الأمر. وهي التي مـاذا سـتفعل بنفسها ويمكنها أن تمشي " ويا دار ما دخلك شـر" ولكـن بشرط وحيد. سرية ما سيقوله لها. إن رددت الكلام، ولو مع نفسها. من الأفضل لها أن تنطق الشـهادتين وتجلـس فـي انتظار الموت المؤكد.

مشت عروق الجدعنة في جسمها. قالت وهي تتذوق طعم الكلمات قبل النطق بها:

- أنا سترك وغطاك.

قال لي إنه أدهم الشرقاوي، فأدركت أن فـي عقلـه لطفًا، أكد أنه أدهم ولكن من الصعيد. أدهم الذي يغنون له في الراديو كان من بحري. ولكنه لن يضـرب الإنجليـز فقـد رحلوا. ولن يأخذ من الإقطاعيين فالقدامى لم يعد لهم وجود. والجدد اختلف شكلهم. ثم إن الغلابة ـ الذين من المفـروض أن يعطيهم ما يأخذه من الإقطاع ـ أصبحوا أكثر من نجـوم الليل ورمل الصحاري وذرات الغبار.

بعد أن قال لي إنه يعرف هدفه جيدا. سألني فجـأة. إلى أين يقودنا هذا الجنون؟ تصنعت الضحك. لأني لم أعرف الإجابة عن سؤاله. وأوشكت أن أقول له تكلم يا عاقل عـن المجانين.

سألني من أريد أن أكون. وقبل أن أقول لـه نصـفه الحلو، تفتق ذهني عن اسم جديد، إن كان هو أيوب المصري فأنا ناعسة سواء رغبت في هذا أم رفضت. وإن كـان هـو أدهم الشرقاوي فعلي أن أختار زبيدة الإقطاعيـة؟ أم بينـت عمه المسكينة، أم الغجرية التي أحبته بصدق حقيقي. لأنها لم تكن تريد منه أي شيء حب حقيقي بدون هدف أو غـرض.

خفت من الاختيار. بما اخترت فأوقعت نفسي في الغلط. قلت له.

- اللي تشوفه أنت يا خوي يبقى كويس.

يبدو أنه أبو لمعة. ولكنه يفشر في أذني، وأبو لمعة الأصلي كان يفشر في الإذاعة فقط. ولكن لن أتركه يفشر منفردا. قلت له: إنني سمعت بطبلة أذني السيدة الأولى تقول أنا جان دارك وتشير إلى شوارع الجيزة وتقول: إن هذا الشعب لن يفهم أبدا الخدمات الجليلة التي قدمتها له. لقد سبقت زماني. ولابد أن تمر سنوات طويلة حتى يدركوا عظمتي. قطر الندى لصة، وشجرة الدر محتالة. وحتشبسوت أسطورة وهدى شعراوي وقفت ضد زواج ابنتها ممن تحب في المحكمة. أنا الزعيمة الأولى والأخيرة. لم يكن هناك قبلي ولن يأتي بعدي أحد. كانت تقول عن الناس إنهم رعاع. والغوغاء لا يفهمون، وعندما كنا نصبح بمفردنا. كانت تزهو بنفسها وتقول: لولاي ما حكم البلاد أنا التي أدخلته التاريخ. وإن كانت لم تقل أبدا إنها قادرة على إخراجه منه.

في مدينة ناصر، ما إن سمعنا أصوات إطلاق النيران حتى رقص مثل المجنون. صاح بعلو الصوت إنه

القاتل، أرغى وأزبد واستمر يصيح حتـى أتـى الحـراس، ووضعوا الكلبشات في يديه.

حمدت الله أن أحدا لم ينتبه إلى أننـي كنـت معـه. وعندما تذكرت أنه لا يعرف حتى اسمي. حمـدت الله مـن جديد أن رجلي لن تأتي في حكايته.

الباقي أمامي، حكايتي أنا..

ارتعاشات الروح ـ محضر ثان

عدت من الجولة وما عدت. تجولت وما رأيت شيئًا، عدت من رحلتي صفر اليدين. ومطلوب منـي الآن كتابـة تقرير عن الرحلة. والأهم منه موافقتي المبدية على البدء في المشروع، ثم كتابة السيناريو قبل أن يبدأ التنفيذ.

رأسي مزدحم. لا أعرف من أين أبدأ. وإلـى أيـن أتجه. ماذا أكتب؟ وأي الأمور أترك؟ وأيها أهمله؟ حيرة مـا بعدها حيرة. يقولون إن المعاصرة تفسد كلّ شيء. لابـد أن تمضي فترة زمنية بيننا وبين الحدث الـذي نكتـب عنـه، ونحاول أن نتمثله ونستوعبه ونهضمه، ثم نصبح لدينا القدرة على إخراجه فنًا جميلاً.

ما زالت رأسي يطن. والأصوات الصاخبة تملـؤه. ماذا أفعل؟! اتصلت بالمدير. طلبت منه مهلة من الوقت لكي أتدبر أمري. ولكنه لم يفهم ما أقصده. قال لي إن هذه المهلة يمكن مناقشتها ولكن بعد القبول بالمهمـة، القبـول أولاً ثـم نناقش قضية التوقيت. قلت له صادقة إنني لم أحسـم قبـول الأمر بداخلي.

الأمر في غاية الصعوبة. رفض ذلك تساءل: أين الصعوبة في الحكاية أصلا؟ إن الأمر في غاية البساطة والعفوية. هل تقبلين أم لا؟ الأمر كله لا يتعدى الإجابة عن مشروع السؤال البسيط هذا.

قلت له، ليت الأمر كان سهلا هكذا.. أخذنا الحوار بعيدا... ودون أن أدري، وجدت نفسي أعتذر له عن المشروع كله، ودهشتي لم تكن من الاعتذار بقدر ما جاءت من سرعة تقبله له، وشكري عليه، وأغلق التليفون في منتصف جملة كنت قد بدأتها.

قلت لنفسي. إن كان قد انتهى بالنسبة له يا بخته.

إن الموضوع كله يبدأ معي الآن.

القاهرة

مدينة نصر

٧ أغسطس ١٩٩٤